الفصل العاشر

تاريخ الفلسفة والعلم حتى وفاة سقراط

بينما كان الشعراء الغنائيون وكتاب المآسى والفنانون يشاركون الشعب فى أحاسيسه ويحاولون أن يعبروا عنها ويوجهوها ، كان ثمة فئة أخرى من الناس يسمون الفسيولوجيين (دارسى الطبيعة) أو الفلاسفة (محبى الحكمة) ، يميلون إلى اعتزال الجمهور لكى يناجوا أنفسهم ويكونوا أرواحهم بأيديهم . وكان فى وسع الفريق الأول أن ينعم بالمهرجانات والأعياد اليونانية ويشارك الشعب فى إقباله على الأساطير والتكهنات بشىء من الحرية ، ولم يكن يتسنى للفلاسفة مثل ذلك الإقبال ، لأن التأمل كان يستحوذ على أفكارهم . فكانوا يحاولون جهدهم أن يتفهموا طبيعة الأشياء والبشر والآلهة ، ولم ينأوا عن مشاركة الشعب فى خرافاته وأوهامه وحسب ، بل كان تحررهم الفكرى ذاته بمثابة تحد لهذه الآراء . تلك كانت حالهم قديماً ولا تزال حتى اليوم .

كان الإنتاج الشعرى والفنى يلاقى رواجاً وإطراء عامين ، بحيث كان الشعراء والفنانون المبرزون يدخلون فى عداد الأبطال الشعبيين . أما إنتاج الفلاسفة فكان من التعاليم الخفية التى كثيراً ما أثارت الشبهات والحسد . وعوضاً عن التقريظ والتقديس ، كثيراً ما عد الفلاسفة بين أعداء الشعب وتعرضوا لنقمته واضطهاده .

ولما أخذت معرفة الأشياء تنمو وتدق ، راح الفلاسفة يحددون نطاق تأملاتهم ويمعنون فى التفكير فى الأشياء ، ونحوا هذا المنحى فى تدرج ، بحيث لا يكاد يتجلى للعيان قبل سنة ٤٥٠ . وبقى فلاسفة النصف الأول من القرن الخامس أشبه ما يكون بفلاسفة القرن السابق ، ومع هذا كانوا أبعد ما يكون عن الأنبياء[1] وما إن تجاوز نصف هذا القرن حتى نجد بعضهم قد أصبحوا أقرب إلى ما لا يزال

يعرف « بالفلاسفة الطبيعيين » . فكبار العلماء كالأبقراطيين الأثينيين وكبار المؤرخين كهيرودوت وثوكيديديس ينتمون بلاشك إلى النصف الثانى من هذا القرن.

كانت أثينا حينذاك مركز الحياة العقلية، ولكن لم يضطر الفلاسفة لأن يكونوا على مقربة منها كما صنع الفنانون . فقد كانت تتنازعهم دوافع متضاربة : فرغبتهم فى العثور على جمهور لائق من المستمعين وتلامذة من ذوى الجدارة كانت تجذبهم إلى المدينة الكبرى ، بينما كان الحرص على الهدوء والعزلة يدفعهم إلى الابتعاد عنها . ثم إن أثينا لم تكن مركز الثقل الفكرى الوحيد ، بل مما زاد عظمة الحضارة الهلينية اشتداد التنافس بين المدن العديدة المنتشرة فى أنحاء البلاد . وقد كان عامة الفلاسفة يشاطرون الشعراء حب الارتياد ، لذلك راحوا يطوفون فى أرجاء العالم اليونانى . وبالطبع زار عامتهم أثينا مرة أو أكثر ، إلا أنهم لم يقيموا فيها فى الغالب ، لأن تقلبات الأحوال السياسية كانت كثيرة وأسس الأمن واهية ، فلا يجد المرء معها إلى الاستقرار سبيلا .

لسنا نعرف آراء الفلاسفة الأول معرفة تامة ، لأن آثارهم فقدت ولم يصلنا منها إلا شذرات ، يضاف إليها ما يرويه بعض مؤرخى العقائد[٢] ، وقد بلغتنا كلها مشوهة وعن طريق غير مباشر . ونحن لا نعثر أحياناً إلا على سلسلة من الأقوال الغامضة التى تفنن العلماء فى تأويلها كل التفنن . ومن العبث أن نحاول فى كتاب كهذا أن ننسج على منوالهم ، ولنفرض أننا أصبنا تأويلا جديداً فكيف يمكننا التيقن من أنه يتفق مع المعنى الأصلى الذى قصد إليه المؤلف ؟ ومهما بلغ من الوجاهة لابد أن يبقى موضعاً لشك . وقد يكون من الأيسر أن نحاول تأويل نبوات كهنة دلفى . أما غرضنا فأبسط من ذلك ، وهو أن نستعرض هؤلاء الفلاسفة دون أن نحاول شرح آرائهم بدقة لا تسمح بها معلوماتنا الضئيلة عنهم .

وسوف نقتصر فى هذا الفصل على اثنى عشر رجلا ، أربعة من الأيونيين هم هيراكليتوس وأناكساجوراس ومايسوس ولوكيبوس ، وثمانية آخرون كانوا ينتمون

إلى أربع مناطق مختلفة من بلاد اليونان : بارمنيديس وزينون من أبناء اليونان الكبرى (جنوبى إيطاليا) ، وانبادوكليس وجورجياس من صقلية ، وديموكريتوس وبروتا جوراس من تراقية ، وأنتيفون وسقراط من أتيكا . (ويلاحظ أن واحداً من ستة فقط كان من أبناء القسم المحيط بأثينا أتيكا) ، ومن هؤلاء الاثنى عشر عاش ثلاثة فقط فى النصف الأول من القرن الخامس هم هيراكليتوس وبارمنيديس وزينون ، وثلاثة فى النصف الثانى ، هم مليسوس وديموكريتوس وسقراط ، بينما لمع الباقون فى أواسط هذا القرن .

هيراكليتوس الأفسوسى :

كانت أفسوس أهم المدن الأيونية الاثنتى عشرة dodecapolis الواقعة على الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى ، وأحرزت شهرة كبرى فى العصور القديمة من جراء معبدها العظيم المكرس لأرتميس[٣] . فى هذه المدينة ولد هيراكليتوس وقضى معظم حياته على ما نعرف . فقد تجول فى صباه كثيراً ولكنه عاد إلى مسقط رأسه بعد ذلك . ويروى ديوجنيس * اللائرتى Diogenes Laërtios أنه عند انتهائه من تأليف أهم كتاب له : « حول الكل » Peri tu pantos أودعه فى هيكل أرتميس . ويقال إنه جعل كتابه هذا غامضاً كل الغموض ، ولذلك دعى بهيراكليتوس المظلم ho Scoteinos . وينقسم هذا الكتاب كما يروى بعضهم إلى ثلاثة أقسام : تبحث فى الكون ، السياسة والأخلاق ، اللاهوت . وليس ذلك بمستبعد لأنه يمكن رد الـ ١٣٠ شذرة التى وصلتنا منه إلى أقسام ثلاثة تنطبق على هذا التقسيم ، كما فعل بعضهم[٤] . ولكنه كان من الصعوبة ، حتى حين كان كله فى متناول الناس ، بحيث إن دارابن هيستاسپيس ملك الفرس كتب إلى هيراكليتوس ودعاه إلى بلاطه ليفسره له . وقد رد عليه ورفض الدعوة قائلا : « أكره الظهور كرهاً عظيماً ، وليس فى وسعى الحضور إلى فارس لأنى قانع بالقليل ما دام

* مؤلف حياة الفلاسفة قبل المسيح ، وكتابه من أهم المراجع القديمة . (المترجم)

ذلك القليل يروق لى » . وهاتان الرسالتان مثبتتان كاملتين فى كتاب ديوجنيس اللائرتى ، وأذكرهما هنا لأنهما تعيناننا على وضع هيراكليتوس فى إطاره التاريخى . حكم دارا الأول من سنة ٥٢١ إلى سنة ٤٨٥ ؛ وإذن يكون هيراكليتوس قد ألف كتابه قبل سنة ٤٨٤ ، ويمكننا أن نرجح أنه ازدهر فى أوائل القرن الخامس .

وأمر هاتين الرسالتين معقول. فنحن نعلم أن هراكليتوس كان يزدرى البشر ، حتى الملوك والفلاسفة . وكان يقول « إن العلم الكثير لا يعلم الفهم وإلا لكان علم هزيود وفيثاغورس وأكسينوفانيس وهيكاتايوس[٥] ». وذهب هيراكليتوس كسائر الفلاسفة الأيونيين إلى أنه ينبغى أن يكون وراء مظاهر الأشياء جوهر واحد للكون ، وأن هذا الجوهر أو العنصر الأول هو النار . ولكن لم النار ؟ لعله استنتج ذلك مما قد يصح تسميته بمبدئه الثانى ، أى مبدأ تحول الأشياء الدائم — Panta rhei[٦] . ويبدو أن تلك كانت فكرته الرئيسية : كل شىء يتحول إما إلى فوق أو إلى تحت . فالنار التى تنطلق إلى أعلى ثم تنحدر إلى أسفل وتتغير فى مظهرها كل لحظة هى رمز التحول الكلى الدائم . كذلك الشمس : المصدر الأعظم للنار الدائمة المتحولة .

أما مبدؤه الثالث فقد كان أن تضارب الأشياء الظاهر ينطوى على انسجام عميق ، لأن كل تحول إنما يجرى بحسب سنة شاملة[٧] . فكل صفة تنطوى على نقيضها ، ووجود كل شىء يتضمن عدمه فى مكان ما . وهذه الأضداد تتحد جميعاً فى نظام الطبيعة العام . « الله هو النهار والليل ، الشتاء والصيف ، الحرب والسلم ، الشبع والجوع »[٨]. وهذا القول يتفق مع قول آخر لهيراكليتوس ، مؤداه أن الانسجام الباطن هو الأصل ، لا التنافر والقبح الظاهران . غير أن أكثر البشر من الغفلة بحيث لا يرون الجمال الخفى الذى لا يبدو للعيان . كان هيراكليتوس رجلا حزيناً ، لأنه أدرك نسبية الأشياء وبطلانها ، واستحالة التشبث بشىء ما ، ما دام كل شىء يفر منا أبداً . وكذا كان يعتبر مثالا للتشاؤم ، يقابله ديموكريتوس ، مثال التفاؤل فى السير الشعبية . وبينما كان

الأول يبكى أبداً ، كان الثانى يضحك أبداً .

والخلاصة أن هيراكليتوس كان فيلسوفاً وشاعراً من النمط الأيونى القديم ، لا رجل علم حتى ولا فى مرتبة كسينوفانيس نفسه . ومع ذلك ابتدأ كتابه « حول الكل » بالطبيعيات . ثم انتقل إلى المسائل السياسية . وأخيراً عالج مسائل لاهوتية : وهذا ترتيب لا بأس به . ويمكننا أن نختم كلامنا عنه بأحد أقواله السياسية : « ينبغى أن يقاتل الناس من أجل القوانين ، كما يقاتلون من أجل جدران المدينة »[٩] . وما أجدر ذلك « بالبارثنون »* !

أناكساجوراس القلازومينى :

عندما نصل إلى أناكساجوراس ، آخر الفلاسفة الأيونيين ، نجدنا أمام مفكر أقرب إلى طائفة العلماء . والتباين بينه وبين هيراكليتوس مدهش جداً : فهذا ينطق بلسان شاعر وصوفى ، وذلك بلسان عالم طبيعى متزن . وأهم آثاره مقالته « فى الطبيعة » Peri physeōs التى وصلنا منها ١٧ شذرة . ولا موضع للشك فى صحة هذه الشذرات التى تقع فى ثلاث صفحات مطبوعة .

ولد أناكساجوراس فى أوائل القرن الخامس فى قلازومينا ، إحدى المدن الأيونية الاثنى عشرة ، الواقعة فى أواسط الساحل الغربى لآسيا الصغرى ، شمالى مدينة أفسوس . ولما كانت أفسوس كعبة هامة يحج إليها ، فمن الراجح جداً أن أناكساجوراس وفد على هذه المدينة حيث التقى بهيراكليتوس. وعلى كل حال رحل إلى أثينا على أثر الحروب الفارسية ، وهو أول من قام بتلك الرحلة من الفلاسفة الأيونيين . وهذا يدل على أن أثينا أصبحت مركزاً جذاباً . ومن حسن طالع أناكساجوراس أن حظى بصداقة بركليس أعظم أبناء تلك المدينة نفوذاً ، ويصف بلوتارك إعجاب بركليس به وصفاً بليغاً يجدر بنا أن نثبته هنا حرفياً :

« . . . أما الرجل ، الذى لازم بركليس وأضفى عليه ذلك الوقار الرائع

(*) البارثنون أحد هياكل الأكروبول الكبرى الذى بناه بركليس، تخليداً لأبطال الحروب الفارسية .

الذى فاق جميع أساليب إغراء دعاة الفوضى ، وسما بخلقه حقاً إلى أرفع درجات السمو ، إنما هو أناكساجوراس القلازومينى ، الذى كان يدعوه أهل عصره بالعقل« Nus » : « إما لإعجابهم بمدى إدراكه الفائق فى الفحص عن الطبيعة ، أو لكونه أول من قال بالعقل الخالص البسيط الذى يميز ويفصل الجواهر ذات العناصر المتشابهة فى وسط عالم من الخليط المشوش ، وعده مبدأ لنظام الكون البديع بدلا من المصادفة أو« الضرورة » . كان بركليس معجباً بهذا الرجل إعجاباً بالغاً ، ولما كان قد تشبع من الفلسفة العليا والتفكير الرفيع ، فقد امتاز بروح تتحلى بالوقار وبيان رفيع خلو من كل قحة سوقية طائشة ، هذا إلى طلعة هادئة لم تستسلم إلى الضحك أبداً ، وخطوة متئدة وهندام لم تكن لتشوشه أى نزوة من نزوات العاطفة إبان الخطابة ، وإيقاع فى الصوت بعيد كل البعد عن الصخب . وميزات كثيرة أخرى كانت تدهش مستمعيه كل الدهشة » . ويقول بلوتارك فى تلك السيرة بعد ذلك بقليل : « وفوق هذا ، كثيراً ما كان بركليس يتخذ من أناكساجوراس وتراً إضافياً لكى يتسنى له أسلوب خطابى مناسب لنمط حياته وسمو مشاعره مناسبة الآلة الموسيقية . حتى لكأنه كان يمزج ببيانه صباغ العلم الطبيعى مزجاً حاذقاً »(١٠) .

وسنعود بعد قليل إلى عرض أفكار أناكساجوراس ، إلا أن هنا ما يدهش له المرء ، وهو إشارة بلوتارك إلى أنه كان لأناكساجوراس الفضل فى رفع شأن بركليس ، لا العكس . فياله من تنويه عظيم بالشهرة التى أحرزها الفيلسوف الأيونى فى أثينا وبعظمة الشعب الأثينى آنذاك . ترى هل يحترم شعبنا اليوم فيلسوفاً ما ، أكثر من احترامه لسياسى مشهور ؟ ويقال أيضاً إن يوريبيديس الشاعر كان تلميذاً لأناكساجوراس . ومن حقنا أن نذهب إلى أن أناكساجوراس كان أول معلم للفلسفة الطبيعية فى أثينا وسلف أفلاطون وأرسطو .

وكان يرى أنه ليس فى الكون انتقال من وجود إلى العدم بل مجرد امتزاج symmisgesthai وانفصال diacrinesthai . فكان الكون منذ البدء خليطاً من بذور spermata لا تحصى أضفى عليها العقل (nus) النظام

والصورة عن طريق حركة التفاف Perichoresis ويلاحظ أن البذور هذه ليست من نوع العناصر ، لأن كلا منها مركب تركيب الكل ؛ ولا من نوع الذرات أو الجواهر الفردة لأنه لا نهاية لتقسيم المادة عنده ؛ ولا حصر لعددها . والنقطتان الأساسيتان فى نظريته هما أولا : إدخال العقل ، تجاه المادة ، كقوة تحول الخليط بالتدريج من الفوضى إلى النظام . وثانياً : فكرة الاعصار الأزلى الأول الذى يتم بواسطته تنظيم المادة . وعن القول بالنوس انبثقت فكرة المقارنة بين العقل والمادة . وإن يكن من الغلو أن يدعى أناكساجورس أبا الثنائية الفلسفية . لأن « النوس » عنده ليس واضحاً كل الوضوح : فيشير إلى قوة طبيعية أو إلى قوة روحية[١١] . أما الإعصار الأول وأثره فى التنظيم التدريجى للكون فيقرب من نظريات « كانت » و « لابلاس » الفلكية ، إلا أنه لا يعدو أن يكون إلماعاً غامضاً إلى هذه النظريات . ومع ذلك يكفى الفيلسوف الأثينى الأول فخراً أن يثير فى أذهاننا مثل هذه المقارنات .

ومما يلحظ لديه توفيقه بين الوحدة الأيونية الساذجة والتعددية الفيثاغورية. فالكون فى جملته وأجزائه المفرطة فى الصغر من جنس واحد ، والفرق بين هذه الأجزاء فى الحجم لا فى التكوين[١٢] .

ولنثبت هنا الشذرة الأولى من شذراته الفلسفية[١٣] لنكون بمثابة مثل على أسلوبه النثرى الذى يختلف كل الاختلاف عن أسلوب هيراكليتوس الشعرى :

« فى البدء كانت جميع الأشياء مختلطة ، لا متناهية فى العدد والصغر ، لأن اللامتناهى فى الصغر كان موجوداً . ولما كانت جميع الأشياء مختلطة لم يبد واحد منها للعيان ؛ لصغر حجمه (لم يكن من الكبر بحيث يرى) . وكان الهواء والأثير[١٤] (وكلاهما غير متناه) يحلان فى كل شىء ؛ لأنهما كانا أعظم الأشياء عدداً وحجماً . »

هذا العمق وهذه الدقة فى التفكير اللذان يبرزان من خلال شذرات أناكساجوراس رغم ضآلة المعطيات العلمية الأساسية التى ارتكزت عليها مدهش حقًّا . كهيكل « البارثنون » الذى كان يشيد فى الوقت ذاته . كيف استطاع

أناكساجوراس أن يفعل ذلك ؟

إن دهشتنا لتزداد عندما ندرك أن معرفته العلمية لم تكن هزيلة وحسب ، بل كانت فى الغالب خاطئة أيضاً . كانت نظرياته الطبيعية تقدمية ، فى حين كانت معرفته الفلكية رجعية إذا قيست بآراء الفيثاغوريين . ولا يستحق ثناء خاصاً فى تفسيره لكسوف الشمس وخسوف القمر على أساس نظرية اعتراض القمر أو الأرض أو أحد الأجرام الأخرى بينهما ، لأن هذا التفسير لم يكن جديداً ولأنه كان يتصل به عدد من الآراء البدائية ، كفكرة استواء سطح الأرض والكواكب الأخرى ، وكالزعم أن الشمس أكبر من شبه جزيرة « البيلوبونيز » ، وهلم جرا . وقد ذهب إلى أن القمر جرم مسكون كالأرض توجد فيه سهول وأخاديد ، وأن النيزك العظيم الذى هبط سنة ٤٦٧ على نهر الماعز (Aegos Potamoi) فى خرسونيس من أعمال تراقية أو شبه جزيرة جاليبولى فى الساحل الشمالى للدردنيل ، إنما هبط من الشمس . وهذا النيزك هو أول نيزك فى التاريخ نعرف زمان وقوعه[١٥] .

وقد كان أناكساجوراس يعتنى عناية بالغة بالتشريح والطب . ويروى أنه درس علم تشريح الحيوانات وقام بتجارب تطبيقية عليها . وقد شرح الدماغ وعرف موضع « الجويفات الجانبية » . وعزا نشوء الأمراض الحادة إلى تسرب الصفراء إلى الدم وإلى الأعضاء .

ثم حاول أن يربع الدائرة ، وألف كتاباً فى فن المشاهد المسرحية : أى تطبيق قوانين الظل على هندسة المناظر والستائر المسرحية ، وهكذا يكون أحد واضعى العلم الرياضى لقوانين الظل الصورى (Perosptive) . وليس هذا بمستبعد ، لأن الحاجة إلى مناظر مسرحية جيدة وبسيطة كانت ماسة ، لما كانت تنعم به الدراما من شأن فى ذلك العصر . وكان من الطبيعى أن يتجه كتاب الدراما نحو رجل من رجال العلم لسد تلك الحاجة ، وكان من الطبيعى أيضاً أن يستشير يوريبيديس معلمه أناكساجوراس فى الأمر .

كان علماء اليونان يعرفون الشىء الكثير عن مصر ونهرها العظيم ، الذى

كان يختلف اختلافاً تامًّا عن الأنهار أو الجداول الضحلة التى ألفوها فى بلادهم. ولذلك راحوا يعملون الفكر فى أسباب فيضانه السنوى الذى كانت تدعى أرض مصر من جرائه « هبة من النيل » (doron tu Potamu) وذهب أناكساجوراس إلى أن هذا الفيضان ناجم عن ذوبان الثلوج على الجبال داخل ليبيا صيفاً ؛ وبعد أن يروى هيروديت هذا التفسير يطرحه جانباً . وأول من أتى بالتفسير الصحيح أرسطو واراتوستنيس ، فقد قالا إن الفيضان ليس ناجماً عن ذوبان الثلوج ، بل عن الأمطار الاستوائية التى تهطل أثناء الربيع وأوائل الصيف بالقرب من مياه النيل الأزرق والنيل الأبيض . ولم يكن تفسير أناكساجوراس صحيحاً كل الصحة إلا أنه كان تفسيراً معقولا ، وهو أول من ذهب إلى أن الفيضان يبدأ فى الجبال التى ينبثق منها النيل[١٧]. وقد مضت ألوف من السنين قبل أن يسلم الناس عامة بالتفسير الصحيح : لأن حل هذه المشكلة عثر عليه ثم فقد مراراً عدة ، وقصة النظريات الدائرة حول فيضان النيل مثال حسن على الصعوبات التى لاقاها الباحثون فى اكتشاف الحقيقة والمحافظة عليها قبل العصور الحديثة .

لن نبحث نظريات أناكساجوراس الفلكية ، فإن معالجة كل بند منها قد يؤدى بنا إلى التطويل ، وليس فى ذلك كبير جدوى ، لأنه وإن كان عالماً مدهشاً فى الكونيات لم يكن فلكيًّا حاذقاً ، بل كان إلى حدما عالماً رياضيًّا يصح تسميته بعالم نظرى . وكان فى هذا عالماً أصيلا لأنه أثار مشاكل علمية حاول أن يجد لها حلولا عقلية . ومع أن الأثينيين أعجبوا به بادئ الأمر ، استهجنوا أقواله مراراً عدة ، واستهجنوا نظرته العامة إلى الأشياء ، وهى نظرة رجل الفكر الذى يطرح الخرافات جانباً : ومثل هذا الموقف ضرب من الإلحاد فى نظر الرجل المتعصب[١٨]. وهذا تعليل كاف لتوجيه تهمة الكفر إليه ، ومن المحتمل أن يكون الغرض من ذلك الاتهام النيل من ولى نعمته بركليس الذى فقد الكثير من شعبيته عند ابتداء حروب البيلوپونيز . فقد أدين عدد من أصدقائه — أشهرهم فيدياس الذى حكم عليه بالسجن وقضى نحبه فيه . أما

يوريبيديس فقد برهن على بعد نظره بمغادرته أثينا حوالى سنة ٤٤٠ ، قبل أن استفحل الأمر ذلك الاستفحال خلال السنوات العشر اللاحقة . واستطاع بركليس أن ينقذ أناكساجوراس من السجن وإن لم يستطع إنقاذه من النفى .

ومهما كانت دواعى اتهام أناكساجوراس الحقيقية — صداقته لبركليس أو ميوله الفارسية [١٩] — فقد كان الاتهام المباشر دينيا . وهكذا أدين أناكساجوراس لنزعته العقلية حوالى سنة ٤٣٢ . ومن المحقق أنه لم يكن أول ضحايا النزاع الدائم بين العلم ، والتعصب ، إلا أنه أول ضحية وصلنا خبرها . وربما لا يصح أن ندعوه شهيد العلم ، فقد اقتصرت عقوبته على النفى ، ومع هذا فهو أول رجل فى التاريخ عوقب من جراء تفكيره الحر ، وضميره وراء ما أوحى به عقله وضميره بدلا من عقائد الجماهير . ولسنا نعرف تفاصيل حياته فى الغربة ، ولكننا نعرف أنه استقر آخر الأمر فى لامبساكوس ، إحدى مدن « ميسيا » . على الشاطئ الجنوبى للدردنيل . لماذا اختار هذا المكان ؟ أللانزواء عن العالم ؟ كلا ! بل لأنه أراد الانضمام إلى لاجئين آخرين إذ أنه حين دمر الفرس مدينة « ملطية » المجيدة ، مهد الفلسفة الأيونية وحاملة لواء الثورة الأيونية على الفرس ، سنة ٤٩٤ ، التجأ عدد كبير من أهلها إلى لامبساكوس . وقد حل فى تلك المدينة لاجئ آخر ، أو سمه خائناً إذا شئت ، هو ثمستوكليس . ولم يكن ذلك بالأمر الشائق ، ولكن يمكننا أن نفترض أن الملطيين أحدثوا فى « لامبساكوس » تقليداً فلسفياً هلينياً ، راق لأناكساجوراس . فقضى آخر أيام حياته هناك وتوفى سنة ٤٢٨ . وليس من المرجح أن يكون وجد متسعاً من الوقت لتأسيس مدرسة فلسفية هناك ، وإن كان وجوده كفيلا بتقوية التقليد الحليبى فى تلك الجهة التى أنجبت فى القرن التالى « أناكسيمينيس » . أحد ملازمى الإسكندر الأكبر ومؤرخيه .

المدرسة الأيلية : بارمينيديس وزينون الإيليان ، مليسوس الساموسى :

لما استولى الفرس على فوكايا ، أقصى المدن الأيونية الشمالية ، استوطن

عدد من سكانها إيليا أو (فيليا) على شاطئ إيطاليا الجنوبية الغربى . ومن المحتمل أن يكون كسينوفانيس الكولوفونى — وهو أيونى آخر — قد مكث فى تلك المدينة ردحاً من الزمن ، وبذلك أيقظ الروح الفلسفية فى أبنائها . وعلى كل حال كانت ولادة بارمينيديس الفيلسوف العظيم وأحد آباء الميتافيزيقى فيها ، ومن المحتمل أن يكون تتلمذ على كسينوفانيس فى أواخر أيامه .

كان بارمينيديس مثال الميتافيزيقى الصرف ، همه الأكبر اكتشاف الوسائل التى توصل إلى الحقيقة الكامنة وراء مظاهر الأشياء ، لا هذه المظاهر عينها ، وليست هذه الوسائل مجرد المشاهدة والتجربة — كما يرى رجل العلم — بل هى المنطق الصرف . ويبدو أنه كان يتصور أن فى وسع الإنسان أن يبلغ الحقيقة المطلقة بالوسائل المنطقية وحدها ، وليس من الإنصاف أن ننحى باللوم على رجل من رجال القرن الخامس خامرته هذه الأوهام ، مادام كل ميتافيزيقى تقريباً حتى يومنا هذا يشاركه فى هذا الاعتقاد .

حاول « بارمينيديس » أن يقيم الفلسفة الأيونية الواحدية بدقة بالغة لتعارض التعددية والثنائية الفيثاغورية . وهو فى محاولته هذه أشبه ما يكون بالعالم الرياضى الذى تهمه الدقة أكثر من المتعارف والأمر الواقع . فعنده « ماهو »(to eon) أو الوجود يملأ جميع أنحاء المكان ، أما العدم فهو « المكان المحض » أى الفراغ المطلق . وهذا العدم يستحيل أن يوجد ، وإن كان يمكن تصوره والتعبير عنه (كما فعلنا نحن هنا) . وبناء على هذه المقدمة يذهب بارمينيديس إلى أن العالم ينبغى أن يكون واحداً ومحدوداً ، وبالتالى ينبغى أن يملأ المكان كله . وللتناسق (symmetry) ينبغى أن يكون كروياً . أما الفراغ فممتنع لأن جميع أجزاء الكون ملأى على السواء ، وهذا الكون أزلى لا يتغير ولا يتحرك لأن التغير والحركة لا حقيقة لهما . ويلاحظ أن هذه النتائج نقيض ما انتهى إليه معاصره الأيونى هيراكليتوس . وكانت مقدمته خاطئة ، ولذا استحال عليه أن ينتهى إلى نتائج صحيحة ، وإن كان هذا لا يعنى أن نتائج هيراكليتوس صحيحة .

استأنف زينون الأيلى ، أحد تلامذة بارمينيديس ، مباحثه الميتافيزيقية

(ولاشك فى أنها تمت إلى الميتافيزيقى لا إلى العلم) وأكملها تلميذ آخر هو ميليسوس الساموسى[٢٠]. ويبدو أن الفلسفة الايلية اتخذت شكلا نهائياً قبل انتقال بارمينيديس إلى أثينا وهو فى السادسة والخمسين من عمره . ويروى « أفلاطون » أن « بارمينيديس » تحدث إلى سقراط وهو حديث السن آنذاك . ويستدل من هذا أن وفوده على أثينا كان فى أواسط القرن الخامس وولادته فى أوائله . ولن نناقش هنا فلسفة المدرسة الإيلية الواحدية المتعالية ، وإنما كان لابد لنا أن نشير إلى نشأتها، وأن نعرف ببارمينيديس وزينون اللذين سنعالج نظرياتهما الرياضية والفلكية فى الفصل التالى .

إن فلسفة بارمينيديس معروفة إلى حدما ، لأن عدداً من أبيات قصيدته التى تلخصها وصلنا . وتقع هذه القصيدة فى مطلع وقسمين : قسم يدور حول الحقيقة وآخر حول الرأى . فاستعاض عن الثنائية الفيثاغورية القديمة بثنائية منطقية جديدة : ثنائية الحقيقة والرأى . كانت أفكاره عميقة أو قل غامضة ، ولكى ننصف الرجل ينبغى أن نراجع أفكاره بالتفصيل ونفحص عنها فحصاً حرفياً دقيقاً ، وإن كان ذلك لا يضمن أن ندركها إدراكاً واضحاً .

أما زينون فقد أكمل « برهان » بارمينيديس بعرضه للحالات التى تلزم عن افتراض أن التعدد والتغير شيئان حقيقيان . ولعل أرسطو دعاه « مكتشف الجدل »من جراء استعماله الغالب لقياس الخلف (reductio ad absurdum) *

إذا سلسنا بالروايات القائلة بأن زينون ولد سنة ٤٨٨ وأنه كان ابن أربع وأربعين سنة عندما رافق أستاذه إلى أثينا ، اتضح لنا أن زيارتهما لأثينا كانت سنة ٤٤٤ . وليس هذا بمستبعد ، وإن كنت أفضل أن أقول إنهما كانا فى أثينا فى أواسط القرن الخامس .

أما ميليسوس فكان أميرال الأسطول الساموسى ، وأحرز بعض النجاح فى مناوأته لبركليس ، وإن لم يتمكن من الحيلولة دون انهزام الجزيرة التى أنجبته

---

* « قياس الخلف هو الذى تبين فيه المطلوب من جهة تكذيب نقيضه – ابن سينا – النجاة ، مصر ١٩٣٨ ، ص ٥٥ . (المترجم) .

سنة ٤٤٠ .هل ذهب إلى أثينا فى تلك السنة وتتلمذ على بارمينيديس أم بعد ذلك بقليل ؟ وهو على كل حال الذى دفع « بالواحدية المتعالية » إلى أقصى مدى ، فقد ذهب إلى أن التغيرات التى تطرأ على العالم الخارجى من خداع الحواس ، وأن العقل لا يستطيع أن يدرك حقيقة الوجود فى أى شكل من أشكاله المتغيرة[٢]. ويمتنع أن يكون الوجود الحقيقى متناهياً وكروياً كما قال بارمينيديس، بل ينبغى أن يكون لا متناهياً وإلا أمكن وجود الخلاء خارجه . ومن الغريب حقاً أن نرى الواحدية الأيونية قد تفتقت فى جو جنوب إيطاليا الفيثاغورى عن هذا الشكل الفكرى المتطرف المتضارب .

وسوف نصادف بارمينيديس وزينون مرة أخرى فيما بعد . ولنتركهما الآن لأننا لسنا بصدد تاريخ الميتافيزيقى بل تاريخ العلم .

أنبادوكليس الأجريجنتى :

كان الفلاسفة الذين عرضنا لهم من قبل (هيراكليتوس وأناكساجوراس وبارمينيديس وزينون) — بقدر ما نعرف عنهم أو يمكننا أن نقرأ بين سطور مؤلفاتهم — غريبى الأطوار . إلا أن واحداً منهم لا يضارع فى الغرابة الفيلسوف الصقلى الذى نعرض له الآن . ولد أنبادوكليس فى « أجريجنت» الواقعة على الساحل الجنوبى لصقلية حوال سنة ٤٩٢ . ولم يكن فيلسوفاً فقط . بل كان شاعراً وعرافاً وعالماً طبيعيًّا وطبيباً ومصلحاً اجتماعيًّا . وبكاهنة . كان من الحماسة بحيث استطاع بعضهم أن يعده دجالا . وعده بعض آخر بطلا أسطوريًّا . وكان مسقط رأسه مدينة من أجمل مدن العالم القديم . دمرها القرطاجيون حوالى سنة ٤٠٦ ، ولم تستعد روعتها بعد ذلك أبداً . وفى عهد انبادوكليس كانت لا تزال مركزاً للثقافة اليونانية امتاز بالغنى والتهتك . وينتمى أنبادوكليس إلى إحدى أسرها الكبرى . ومن الطبيعى أن تجذب الثروة ووسائل الرفاهية عدداً من الرجال المبرزين مثل بندار وسيمونديس، وباخيليديس وأكسينوفانيس وبارمينيديس فى الغالب. وعندما أقصى الفيثاغوريون عن «أقروطونا» لجأ بعضهم إلى «أجريجنت، حيث كان منظر البحر من التلال رائعاً جداً ، والسهول المحيطة بالمدينة تحتوى

على مناجم الكبريت والملح والمنابع الحارة والأعاجيب الأخرى التى كانت كفيلة بإثارة فضول العقول المتعطشة للمعرفة . وليس لدينا أى دليل على أن أنبادوكليس تجول فى مصر والشرق — كما يروى بعضهم — ولكنه تجول فى العالم اليونانى . من جهة ، ووفد على مسقط رأسه . من جهة أخرى . وكان لابد له أن ينغمس فى تلك الحركة الفكرية — الفلسفية والدينية والعلمية — التى كانت تغمر جميع الأصقاع الناطقة باليونانية .

وتشتمل مؤلفاته على أغان تطهيرية (Catharmoi) ، وثلاثة كتب عن الطبيعة (Peri physeos) ، وقصيدة طبية (Iatricos) . وقد وصلنا ٤٥٠ بيتاً من جميع آثاره . ومع أن هذا جزء ضئيل من المجموع . فإنه كاف لتكوين فكرة دقيقة عن أسلوبه وآرائه .

ويذهب إلى أن العناصر أو الأركان (rhizomata) أربعة : النار والهواء والماء والتراب ، وأن القوى المحركة اثنتان : قوة تجذب نحو المركز وهى الحب (philotes) ، وقوة تدفع عنه هى الغلبة (neicos) . وجميع الموجودات تتركب من هذه العناصر التى لا تتغير ولا تنعدم . والتى تتألف وتتحد بفعل الحب وتتفرق وتتفكك بفعل الغلبة . كانت نظرية العناصر الأربعة توفيقاً غريباً بين الواحدية الأيونية من جهة والتعددية الصرفة من جهة أخرى[٢٢].

وقد يتساءل : لم أربعة عناصر ؟ يظهر أن هذه القضية لم يعبأ بها أحد . بل إن أفلاطون وأرسطو أضافا عنصراً خامساً . ورغم كون هذا العدد اعتباريًّا محضاً ، فإنه كان لهذه النظرية تاريخ مجيد . وقد سيطرت على الفكر الغربى حتى القرن الثامن عشر تقريباً[٢٣].

عمرت هذه النظريات الكونية طوال هذه العصور . لأنه كان من المستحيل البرهنة على صحتها أو على بطلانها قبل ولادة علم الكيمياء الحديثة . أما النظريات الفلكية عامة فكانت أقرب إلى المعقول . وكانت نظريات أنبادوكليس خاصة من النوع الساذج : فقد ذهب إلى أن السماء سطح مصنوع من البلور ، إهليلجى الشكل ، شدت إليه النجوم الثوابت وحدها بينما خليت الكواكب وشأنها . ومع

ذلك استطاع أن يقوم بملاحظات وتجارب طبيعية مثمرة ، وثمة تجربة واحدة تنسب إليه كافية فى أن نسلم له بمنزلة رفيعة دائمة فى تاريخ العلم ، وهى تجربة الكلبسيدرا (Clepsydra) * التى برهن من خلالها على أن الهواء جسم . ولعله لجأ إليها من جراء المناقشات حول وجود الخلاء أو استحالته . كانت الكلبسيدرا العادية عبارة عن وعاء مغلق فى قعره ثقب واحد أو عدة ثقوب ، وفى أعلاه ثقب آخر . فإذا أغلق الثقب الأعلى بالاصبع وغطست الكلبسيدرا فى الماء لم تمتلىء ، ولكن عندما ترتفع الاصبع يندفع إليها الماء — وثمة عدد من التجارب البسيطة الأخرى التى تؤدى إلى هذه النتيجة نفسها . مثلا : إذا حاولنا أن ندفع بإناء فارغ ذى فوهة واسعة فى الماء فإن فقاقيع من الهواء تأخذ فى الخروج من سطح الماء . وهذه الفقاقيع التى يمكن رؤيتها وسماعها تمثل جسماً ماديًّا . إن الإشارة إلى استعمال انبادوكليس للكلبسيدرا هو أول ذكر يرد لها فى الأدب اليونانى ، ولابد أن يكون اليونان استخدموها فى شكل من الأشكال ، لأنها كانت معروفة عند المصريين فى عهد السلالة الثامنة عشرة وعند البابليين القدماء أيضاً . أما نظرية الكلبسيدرا عند اليونان فتأخرة العهد ، ولا نقع لها على ذكر قبل زمن كليوميديس (١ . ق . م .) [٢٤].

وقد سجل أنبادوكليس عدداً من الملاحظات حول الرؤية والضوء ، ليجيب على سؤال : كيف نرى شيئاً ما ؟ ويبدو من رواية أيتيوس أنه توصل إلى حل وسط للمشكلة : وذلك أنه يصدر عن الأجسام المضيئة إشعاعات (aporroai) تصادف الأشعة الخارجة من العين ، وفى هذا ما يشير إلى أن مفكرين يونانيين آخرين حاولوا حل هذا اللغز . فزعم فيثاغورس وأتباعه أن الرؤية تنشأ عن أجزاء تنبعث عن الجسم ، وزعم آخرون أن العين نفسها ترسل الأشعة الحاسة . وهذه الأوهام تبدو سخيفة للقارئ المعاصر ، ولكن ينبغى أن يذكر أنها تمثل خطوة جريئة ، إذا قيست بموقف القدماء الذين كانوا يعتبرون الرؤية

* معناها الساعة المائية ، وهى آلة فى قعرها ثقب صغير ينقط منه الماء ، وتستعمل للدلالة على الوقت — (المترجم) .

من الأشياء المسلم بها دون أن يحاولوا تفسيرها مطلقاً ، ولم يخطر لهم على بال أن هناك ما يدعو إلى التفسير[٢٥] .

وكذلك كانت تقديرات أنبادوكليس لسرعة الضوء مغامرة وتخميناً ، وإن كانت أكثر توفيقاً . فقد أثبتت صحتها مشاهدات قام بها الفلكي الدانمركي « رومر » بعد واحد وعشرين قرناً (سنة ١٦٧٦)[٢٦] ، وتجارب أخرى لم يتمها العلماء إلا خلال القرن الماضي . ذهب أنبادوكليس إلى أن للنور سرعة محدودة ، ولم يكن هذا القول بالطبع نتيجة للمشاهدة ، بل للتأمل النظري البحت . ويشهد أرسطو على ذلك ، ويرويه في موضعين[٢٧] ، ومن المفيد أن نثبت هنا أول هاتين الروايتين وأطولهما :

« يقول أنبادوكليس إن نور الشمس يخترق الفضاء المعترض (بين الشمس والأرض) قبل أن يبلغ العين أو الأرض ، ويبدو أنه كذلك ، لأن كل ما يتحرك (في المكان) إنما ينتقل من موضع إلى آخر ، وهكذا اقتضى أن يكون ثمة فترة زمنية مقابلة يتحرك فيها الشيء من مكان إلى آخر . وكل وقت معين منقسم إلى أجزاء ، لذلك ينبغي أن نفترض فترة لم يكن شعاع الشمس قد رؤى خلالها بعد ، بل كان لا يزال منطلقاً في الفضاء المتوسط » .

ويعزى إلى أنبادوكليس عدد من « الاكتشافات » في علمي التشريح ووظائف الأعضاء . فقد اكتشف صماخ الأذن ، وذهب إلى أن التنفس لا يكون بحركة القلب فقط ، بل بواسطة الجلد كله . ودلل على أهمية الأوردة الدموية ، وأن الدم حامل الحرارة الغريزية ، وأنه يندفع من القلب ثم ينصب فيه مرة ثانية . وليس هذا اكتشافاً لنظرية الدورة الدموية ، بل « للنظرية التموجية » التي بسطها جالينوس (٢ — II) — والتي بقيت شائعة مع شيء من التعديل حتى زمان هارفي (١٦٢٨) وبعده بقليل . ويبدو أن أنبادوكليس طبق « نظرية التموج » هذه على العالم برمته : فهي رأيه، هناك أمواج كونية (أو قل تنفس كوني) تشبه الأمواج (أي التنفس وضربات القلب) التي نجدها في الجسم البشري . وهذا القول يتفق مع فكرة التعاقب بين القوتين الكونيتين : الحب

والبغض — وهي فكرة أحرزت شهرة عظيمة طيلة قرون ، وعادت إلى الظهور مراراً في آثار عدد من الكتاب (مثل ليوناردو دافينشي وجيته) .

أما نظرياته الطبية فقد اتسمت أيضاً بسمة التنبؤ بالغيب . فالصحة عنده تتوقف على التوازن بين عناصر الجسم الأربعة ؛ وينجم المرض عن اختلال توازنها . وكثيراً ما حورت هذه النظرية أو بسطت[٢٨] . ولكن بقيت مسلماً بها طيلة الحقبة التي سلم فيها بنظرية العناصر الأربعة . بل لقد بزتها في التعمير . وبقيت تردد حتى يومنا هذا.

وثمة « نواحي سبق » أخرى طالعها بعضهم في مؤلفاته الغامضة : كالقول بوحدة الطبيعة . والتطور العضوي . والتكيف بحسب البيئة . والتذكر المتصل بتناسخ الأرواح[٢٩] .

إن هذه الصورة لأنبادوكليس . رغم تنوع ألوانها ، ليست كاملة بعد . لأنه كان يتصف أيضاً بصفة لعلها أبرز نواحي شخصيته . وهي ناحية المصلح والمبشر . فكانت المستنقعات المحيطة بأجريجنت موبوءة فجفف بعضها على حسابه الخاص . وكان يتجول من بلدة إلى أخرى يعظ تارة ، وينشد أبياته طوراً ، ويطهر النفوس ويشفي الأجسام . وفوق هذا يقال إنه أعاد إحدى نساء أجريجنت إلى الحياة . فكان من المخلصين أصحاب المعجزات . وبلغت شهرته (رغم ما كان يشوبها من شوائب) حداً بعيداً في حياته . ودخل في عداد الأبطال على أثر وفاته . وهكذا تجمعت الأساطير بسرعة حول اسمه كما جرى لفيثاغورس والقديسين الأول . وكانت هذه الأساطير من الغلو بحيث طمست معالم الحقيقة . وأصبحنا لا نعرف بالضبط ملابسات وفاته . وفي بعض هذه الأساطير أنه ألقى بنفسه في فوهة بركان أطنة . وفي بعضها الآخر أنه سقط فيها حين كان يراقب هيجانه . ويقال أيضاً إن البركان قذف بإحدى نعليه . (وهذا نوع من الظروف التي ترافق عادة هذه الخرافات وترمي إلى تسهيل تصديقها على المستمعين السذج) . وفي رواية أخرى أنه تعرض لسخط الجمهور ؛ واضطر لمغادرة صقلية . ولم يكن ذلك بغريب فإن رضا الجمهور متقلب بين طرفي

الشدة والضعف . فذهب أولا إلى إيطاليا ؛ والأدلة تشير إلى أنه أقام فى ثوريا (لوقانيا) على أثر تأسيسها بأمد قصير (سنة ٤٤٥) ؛ ثم هاجر إلى «الپيلوپونيز» وبلغ أولمبيا سنة ٤٤٠ ؛ وأنشد أحد الحفاظ «قصائده التطهيرية» أثناء إحدى الحفلات الأولمبية فى تلك السنة (سنة ١ — ٨٥ للأولمبياد) . وبعد ذلك انقطع أثره . فهل تراه وفد على أثينا ؟ ليس لدينا ما يدل على ذلك ؛ وهو ليس قريب الاحتمال . لأن صانع معجزات يفد على أثينا من المستعمرات لم يكن ليستقبل استقبالا حسناً فيها ؛ بل على العكس إن وافداً كهذا قد يتعرض لسوء عظيم . فقبله طرد أناكساجوراس منها ؛ برغم كونه أقل حماسة وغرابة ؛ وبعده بزمن غير طويل أدين سقراط بدوره . ولعل الأقرب احتمالا أن أنبادوكليس بقى فى الپيلوپونيز متنقلا من مكان إلى آخر برفقة صديق له شاب اسمه بوسانياس ابن أنخيتوس . وإليه أهدى كتابه «فى الطبيعة» (راجع مطلعه) ، ويمكننا أن نفترض أنه ألف هذا الكتاب أثناء سنوات نفيه هذه . وفى رواية طريفة كل الطرافة أنه توفى فى بعض أنحاء الپيلوپونيز حوالى سنة ٤٣٥ — ٤٣٠ ؛ حينما كان جالساً فى حلقة من أصدقائه ، ومن بينهم بوسانياس . يتناولون الطعام . وما إن جن الليل حتى سمع الجلوس إلى هذا العشاء الأخير صوتاً قوياً ينادى أنبادوكليس ؛ وما لبثت السماء أن أضاءت وتوارى هو عن العيان[٣٠].

وإن هذه العجالة على قصرها لتثبت أن أنبادوكليس الصقلى كان يختلف كل الاختلاف عن سائر الفلاسفة اليونان . باستثناء فيثاغورس والشعراء الأورفيين . فقد كان فيه شىء من الشرق خالطته بعض النزعات العلمية الأصيلة ، وقد تكون العناصر الشرقية تسربت إلى ذهنه المتفتح من إيران أو بابل أو مصر أو الهند ، أو تكون مظهراً أصلياً من مظاهر طبيعته المحفوفة بالأسرار . وكان رجلا عظيماً فذاً بحيث لم يخلف وراءه مدرسة ما ، ومن هنا لم يستطع أحد من أتباعه أو تلامذته — حتى ولا بوسانياس الأمين — أن يستأنف نشاطه .

الذريون : لويكيبوس وديموكريتوس[٣١]

بعد هذه الجولة فى صقلية ، يمكننا أن نعود ثانية إلى بلاد اليونان ذات

الصبغة العقلية لنشاهد نشأة تفسير جديد للكون : نظرية الذرات أو الجواهر الفردة . لكن العودة إلى اليونان لا تعنى الفرار من الشرق ، لأن التأثير الشرقى كان قد تغلغل فى صميم عالم البحر المتوسط الشرقى طيلة أجيال . ولكى ندرك أهمية هذه النظرية الجديدة دعنا ننس كل ما نعرف ونسأل أنفسنا : من أى شىء يتركب العالم ؟ ثمة جوابان على هذا السؤال : إنه مركب من مادة واحدة أو من عدة مواد . رأينا أن الفلاسفة الأيونيين الطبيعيين أجابوا على هذا السؤال الجواب الأول ، ولكن نقاط الضعف فى هذا الجواب أخذت تبرز لنا منذ البدء ولم يكن من المستطاع تلافيها إلا بإدخال تعديلات تنطوى على تخل ضمنى عن الواحدية monism الأصلية . فأناكسيمينيس مثلا قرر أن العنصر هو الهواء . عازيا تعدد مظاهره إلى التكاثف أو التخلخل . ومن اليسير أن نسلم بهذا التأويل لأننا نعلم أن الهواء مركب من جزئيات لا تحصى يمكن الجمع بينها من جهة ، أو تفريقها من جهة أخرى ، ولكن دون هذه الصورة يصبح ذلك مستحيلا . فكيف يستطيع المرء أن يدرك تخلخل مادة ما أو تكاثفها إذا كانت تتركب من قطعة واحدة ؟ وهكذا يمكننا أن نقول إن أناكسيمينيس كان من أصحاب التعدد وهو لا يدرى .

ومثل هذا يصدق على فيثاغورس وأتباعه الذين قالوا بوجود الخلاء . فالواحدية الحقة ، كما تبدو عند بارمينيديس والإيليين بوضوح ، تفترض فكرة الملأ .

أما فلسفتا أناكساجوراس وأنبادوكليس فقد كانتا عبارة عن تلاف للمأزق الذى كان يؤدى إليه القول بالمبدأ الواحد . وخرجا من ذلك وخرجت معهما البشرية عامة إلى الأبد . فأناكساجوراس فى قوله بوجود عقل يهيمن على الكون أدخل الثنائية ، وأنبادوكليس فى قوله بالأركان الأربعة والقوتين الاثنتين أقر تعددية كاملة . ولم يلبث أصحاب المذهب الذرى أن خطوا الخطوة التالية فوضعوا عدداً غير متناه من الجزئيات المنفصلة والمبثوثة فى الخلاء اللامتناهى .

كان القدماء (كأرسطو وثيوفراستوس مثلا) يجمعون على أن مخترع النظرية الذرية لويكيبوس ، الذى ازدهر أواسط القرن الخامس ، وموسعها بعد ذلك بنحو

ثلاثين سنة هو ديموكريتوس . فلنتعرف أولا إلى هذين الرجلين الغريبين .

لا نعرف إلا النزر اليسير عن الأول . فنحن نجهل حتى مسقط رأسه . ومن قائل إنه « إيليا » ، أو « أبديريا » ، أو « ملطيا » : والأخيرة أرجح ، ولهذا سندعوه لويكيبوس الملطي . أما البلدان الآخران ابديريا أو إيليا فلعلهما ذكرا من باب الخلط بينه وبين ديموكريتوس بالنسبة للأولى ، أو لأنه بدأ بالتتلمذ على المدرسة الايلية وكان بالفعل تلميذاً لزينون بالنسبة للثانية (كما ورد فى رواية قديمة) ، ومن الممكن على كل حال أن يكون زار إيليا . ومن المرجح جداً أنه أقام زمناً فى أبديريا . ويمكننا أن نتصور نشأة المذهب الذرى كرد فعل لنظريات بارمينيديس الغربية ، ويروى أن لويكيبوس بسط النظرية الذرية فى كتاب دعاه — ويا للغرابة — « نظام الكون العظيم » (Magas diacosmos) . ولكن هذا الكتاب ينسب أيضاً إلى ديموكريتوس كما ينسب إليه كتاب أصغر يدعى « نظام العالم الصغير » .وقد فقد ما كتبه لويكيبوس إلا جملة تنسب إليه وهى هذه : « لا يحدث شيء عبثاً (بدون علة) ؛ فكل شيء ينشأ عن سبب ويتولد عن الضرورة »[٣٢] .

أما ديمركريتوس فمعرفتنا به أوفى .[٣٣] فلا خلاف مثلاحول مسقط رأسه أبديريا فى تراقية ، أو حول زمانه ؛ فإنه يخبرنا أنه كان لايزال شاباً إبان شيخوخة أناكساجوراس وأنه كان أصغر منه بأربعين سنة . وهذا يتفق كل الاتفاق مع رواية أخرى ، مفادها أنه ولد فى سنة ٨٠ للأولمبياد (٤٦٠ — ٤٥٧) ويتفق أيضاً مع ما يذكره من علاقته بلوكيبوس . ولا نحيد كثيراً عن جادة الصواب إذا قلنا إن تاريخ ازدهارهما كان فى ٤٥٠ و ٤٢٠ . وبعبارة أخرى اتخذت نظرية الذرة شكلا نهائياً فى الربع الثالث من القرن الخامس فى مدينة أبديريا.

قد يثير ذكر أبديريا استغراب القارئ ، ومع ذلك لاشك أنه أخذ يدرك طبيعة العبقرية الجوابة فى العالم اليونانى . وقد تبدو أبديريا الواقعة فى الطرف الشمالى من البحر الإيجى نائية ، إلا أنها كانت مدينة قديمة ومزدهرة ، ومن الطريف أنها اشتهرت كمقر للأغبياء[٣٤] ، رغم أنها أنجبت ديموكريتوس

وبروتاغوراس وأناكساجوراس[٣٥] . وإذا صح ، كما نرى ، أنها كانت مهد النظرية الذرية ، فما أقل المدن التي يمكن أن تضاهي أبديريا مجداً في العالم ! ! كانت أثينا مركز العالم اليوناني ولكنها لم تكن العالم اليوناني كله ، ولا الموطن الوحيد للكفاية ، بل كانت المكان الذي كانت الكفاية تجد فيه خير جزاء في أواسط القرن الخامس . وإن كان هذا الجزاء لم يبذل دائماً : فقد ذهب ديموكريتوس إلى أثينا وشاهد سقراط ، ولم يجرؤ على تعريف نفسه به لشدة حيائه . وهو يقول : « أتيت إلى أثينا ولم يتعرف إليّ أحد » . ومن المحتمل أن الأثينيين لم يكونوا بحاجة كبرى إليه . ما دام مجيئه قد تم في أواخر القرن . وقد ألف عدداً كبيراً من الكتب التي لم تصلنا سوى أسمائها . وهي مرتبة في فئات أربع[٣٦] . وإذا استندنا إلى هذه الأسماء فإنها تؤيد الروايات المتعلقة بتربية ديموكريتوس ، فلدى وفاة أبيه قرر أن ينفق تركته الضخمة على البحث والدراسة في الخارج . ولم يكن هذا بدعاً في اليونان . فقد رأينا الفلاسفة والشعراء يتجولون كثيراً ، وإن اكتفى أكثرهم بالطواف في الأصقاع الناطقة باليونانية ، وقليل منهم جذبه الشرق بأسراره ثقة منه أنه منبع الحكمة القديمة . وقد تجول ديموكريتوس كثيراً ، وحيث ذهب كان يبحث عن العلماء ويدرس عليهم . فقضى خمس سنوات في مصر يدرس الرياضيات وبلغ « مروى » الواقعة على ضفاف النيل الأعلى . ويسر الصلح الذي عقد حين ذاك (بعد سنة ٤٤٩) بين اليونان والفرس لمن شاء من أهل اليونان أن يطوف في آسيا الصغرى[٣٧] . واغتنم ديموكريتوس هذه الفرصة لكي يزور بلاد الكلدان . ووصل فعلا إلى بابل (فكان أول فيلسوف يوناني وصلها) ، ومنها إلى فارس ، ولعله وصل إلى الهند . والمهم أنه لم يكن متفرجاً ولا سائحاً ولا تاجراً ، بل كان فيلسوفاً يبحث عن المعرفة . ترى كم أتيح له أن يجني من ثمارها ؟ وهل كان في وسعه أن يقرأ الكتابة الهيروغليفية والمسمارية ؟ الأرجح لا ، ولكنه كان رجلا ذكياً يقظاً طلعة يستطيع أن يقارن بين المعلومات التي ترد إليه من مصادر مختلفة . ولا شك أنه تعلم أشياء كثيرة من معلميه المصريين والكلدانيين والفارسيين . ولكن

ما مقدار ما تعلمه ؟ وهل لنا أن نستنتج أنه حمل المذهب الذرى معه من الشرق ؟ سوف نعود إلى ذلك بعد قليل .

قبل أن نناقش هذا المذهب ينبغى أن نكمل وصفنا لشخصية ديموكريتوس . فهو لم يكن أحد مؤسسى المذهب الذرى وحسب ، بل كان واسع المعلومات يهتم بجميع فروع الفلسفة والعلم . وسنعرض لمعارفه فى الرياضيات والفلك والطب فى فصول أخرى . ونكتفى هنا بأن نشير إلى نظرياته فى علم النفس والأخلاق . فهو أول من حاول إعطاء تفسير علمى « للحماسة » أو حال النفس البشرية التى استحوذ عليها الله والتى يمكن تسميتها بالإلهام الإلهى — وهى أيضاً حال الخلق الفنى والعبقرية والجنون[٣٨] — ودفعه هذا إلى دراسة أصناف عدة من المشاكل النفسية وما وراء النفسية (ميتابسيكية) . أما اهتمامه بالأخلاق فيمكن الاستدلال عليه من مجموعة الحكم (gnomai) المنسوبة إليه . هل هى أقوال أصيلة ؟ من يدرى؟ فبعضها أمثال لا يصعب التسليم بأنها من تأليفه ، حتى ولو سلمنا بأنها وصلتنا فى الشكل الذى صاغه هو ، لأنها تمثل حكمة قومه المتراكمة ، لا حكمته الخاصة . وتمثل أول مجموعة من نوعها فى الأدب الأوروبى ، لذلك كانت ذات أهمية خاصة . وهاك بعض أمثلة منها :

— لا تحاول أن تعرف كل شىء إذا كنت لا تريد أن تجهل كل شىء .

— الشجاعة بداية العمل والمصادفة سيدة النهاية [٣٩] .

— تنشأ اللذات الكبرى عن التأمل فى الأعمال الجميلة .

— البشاشة نتيجة الاعتدال فى التلذذ والاتساق فى المعيشة . والإفراط والتفريط قد يؤديان إلى تغير حال النفس وإثارة حركات عنيفة فيها .

— من أهم الأمور فى الشدائد أن نفكر تفكيراً صحيحاً .

— من يظلم أتعس ممن يظلم .

— خير للمرء أن يستشير قبل الفعل من أن يندم بعده .

— (ومع ذلك) التدم على الأفعال الشائنة مفتاح الخلاص فى الحياة .

— النفوس الكبيرة تحتمل الإساءة بوداعة .

— من أصاب زوج بنت حسناً وجد ابناً . ومن أصاب زوج بنت سيئاً فقد ابنه.

— من لم يكن له صديق وفيّ واحد لم يستحق أن يعيش .

— اطلب فن السياسة فإنه أعظم الفنون جميعاً ، وتحمل ما يقضى به من مصاعب ، فإنها مصدر ما يرجوه البشر من نتائج كبرى باهرة .

— ينبغى للمرء أن يعتبر شؤون الدولة أعظم الأشياء ويحرص على أن تكون مدبرة تدبيراً حسناً . وينبغى ألا ينازع إلا فيما هو حق ولا يتقلد السلطة إلا من أجل الخير العام. لأن دولة أحسن تدبيرها خير مأثرة. إذ هى تشتمل على كل شىء : فإن سلمت سلم كل شىء معها وإن هلكت هلك كل شىء .

كانت أكثر هذه الحكم الأخلاقية والسياسية والاقتصادية من المبتذلات عند الجماعة المثقفة فى عهد ديموكريتوس، ولكن بعضها أرقى من مفاهيم ذلك العصر بحيث يستشف الإنسان من خلالها نزعة سقراطية أو أفلاطونية بل مسيحية . لم يشدد ديموكريتوس على الاعتدال فقط ، بل على روح البشاشة وذلك مما يستحق الثناء الخاص خلال تلك الأيام السود التى شهدها ولا شك . ولما كان قد توفى عن سن متأخرة . ولعله شارف المائة ، فإن حياته امتدت إلى الربع الثانى من القرن الرابع[٤٠] .

ولننظر الآن فى المذهب الذرى الذى أخذه ديموكريتوس عن لوكيبوس . ووسعه حتى أصبح تفسيراً كاملا ومتماسكاً للكون .

وضع ديموكريتوس ثبات الوجود النسبى محل صيرورة هيراكليتوس التامة ، وحقيقة الحركة محل استقرار بارمينيديس . ويتألف العالم عنده من جزئين : الملأ (pleres, stereon) والخلاء (cenon, manon)، وينقسم الملأ إلى أجزاء تدعى ذرات atomon (جزىء لا يتجزأ) . والذرات غير متناهية العدد ، أزلية بسيطة كل البساطة . تتشابه فى الكيفية وتختلف فى الشكل والترتيب والموقع[٤١]. وكل جوهر، أى كل موضوع فرد، يتركب من هذه الذرات ،والتراكيب الممكنة منها متناهية وعلى أنحاء متناهية ، والأشياء توجد ما دامت الذرات التى تتألف منها مجتمعة ، وتنعدم عندما تتفرق هذه الذرات . فالتغير الدائم فى الكون

نتيجة اجتماع الذرات وافتراقها . ولما كانت الذرات فى حد ذاتها غير قابلة للعدم يمكننا أن نعتبر هذه النظرية بمثابة إقرار لمبدأ بقاء المادة .

ولكن كيف تتحرك الذرات ؟ كيف تجتمع وتفترق ؟ تجتمع على وجه ما دون آخر ؟ يمكننا إثارة عدد لا يحصى من هذه الأسئلة التى لم يكن فى وسع ديموكريتوس الإجابة عنها ، ولا صياغتها . ولم تتم صياغة هذه الأسئلة بدقة إلا ببطء ومشقة على يد كيماويى القرنين السابع عشر والعشرين ، ومع ذلك لم ينته عملهم بعد ولن ينتهى . المذهب الذرى مذهب جبرى وآلى ، ولا يحد من جبريته فى نطاق الإرادة والحرية البشريتين سوى جهل الإنسان وتعقد الأسباب غير المتناهى . لم يقل ديموكريتوس بروح متميزة عن المادة ، إلا أن فئات من هذه الذرات ألطف عنده من فئات أخرى ، ولهذا وضع سلسلة من هذه الفئات تمتد من الأثقل والأكثر ترابية إلى الألطف والأشد أثيرية . والنفس (أو المبدأ الحيوى : psyche) جسمانية ، وإن كانت تتألف من أخف الذرات (كالنار) ، وأسرعها حركة (وكروية الشكل لتزيد سرعتها) . ولجميع الأشياء نصيب من هذه الذرات الخفيفة (أى النفوس) ، وفى هذا ما مكن الذريين القدماء من تفسير الإحساسات والأفكار والظواهر النفسية المختلفة . ترد كلمة Psyche فى شذرات ديموكريتوس التى وصلتنا مراراً : وهى تعنى العقل أو النفس . وثمة قدر من « البسيشيه » فى كل مكان ، أو بعبارة أخرى : العالم كله حىّ (أى متنفس) ، ولكن ليس ثمة آلهة ولا عقل « كالنوس » الذى قال به أناكساجوراس ، ولا عناية سماوية كالتى قال بها سقراط . وتفوق النفس على الجسد ، أو الفئات الأقل جسمانية من الذرات على الفئات الأكثر جسمانية ، قضية ثابتة عند ديموكريتوس بحيث لا يناقشها بل يعيد التأكيد عليها مراراً . وهكذا يهيمن على ماديته شىء من المثالية الأصيلة . وفوق ذلك قال بوجود ذرات لطيفة أشد اللطف ومنبثة فى كل مكان وفى وسعها التأثير على مصيرنا ، يدعوها أيدولا eidola (ومنها لفظة idols فى الإنجليزية ، ولها دلالة خاصة بمعنى : أشباح ، صور ، أطياف ، أوهام) ، وقد كانت هذه وسيلة

لبقة لتأويل ما تنطوى عليه الأحلام والرؤى والتكهن . والخفايا الأخرى من حقائق . ومما يخفف الجمود الظاهر فى مذهبه ما اشتمل عليه من غموض وسرونة ، فكان مذهباً شاملا يستطيع أن يؤول أكثر الحقائق أو الوقائع أشدها مادية وأعظمها روحانية . وكما يلاحظ بيلى :

« لم يكن ديموكريتوس أحد الشكاك ولا العقليين ولا من القائلين بالظواهر (Phenomenalist) ، ولا يصدق عليه شىء من مفاهيمنا الحديثة . فلم ينكر ولم يثبت حقيقة جميع الإحساسات أو جميع الأفكار ، ولكن كوّن لنفسه نظرية فى المعرفة دقيقة تكاد تكون بادية التناقض ، وترتكز مباشرة على نظرته الذرية إلى الكون . فمقومات الكون الأخيرة : أى الذرات والخلاء ، حقيقية ويمكن للعقل إدراكها . والظواهر إنما تتركب من هذه المقومات الأخيرة وتحتفظ بخاصيات الحجم والشكل ، وهكذا هى حقيقية ويمكن إدراكها بالحواس . ويستطيع العقل أن يستنتج من الظواهر، لأنها ، وهى وحدة مؤلفة من الخاصيات الأولية ، حقيقية ، ولأن الحس ، وهو إدراك الظواهر الحقيقية المحض ، هو والفكر شىء واحد . وإذا تجاوزنا هذه الخاصيات الأولية ، أى تجاوزنا حقيقة الظواهر ، كنا كمن يسند إلى الموضوع ما هو فى الواقع من خواص التجربة الذاتية المستمدة من الحواس وأن الفكرة المبنية على هذه « الاصطلاحات » لن تجدى نفعاً[٤٢] .

ثارت حول مصدر المذهب الذرى مشادات بين عدد من العلماء ، الذين لم يجدوا فى الأصول اليونانية (كالفيثاغورية وغيرها) التى أشرنا إليها من قبل ، ما يكفى لتفسيره . وقد نشأت مذاهب ذرية فى الهند فى مدرستى « نيايا » و « فايسيشكا » فى عهد لا يمكن تعيينه بالضبط ، وإن كنا نجزم أنه يرقى إلى ما قبل المسيح[٤٣] . وإذا افترضنا أنه سبق قيام هذه النظريات نظريات أقدم ، أو قل أقدم جداً (براهمية وبوذية وجاينية) ، فهل اطلع اليونان على هذه النظريات القديمة ؟ وهل أثرت فيهم يا ترى ؟ ليس ذلك ممتنعاً ولعل ديموكريتوس نفسه سمع بها عندما كان فى الفرس أو الهند (؟) ولكن هذه تخمينات غريبة

لم يدلل عليها . والنظرية الذرية فرض علمى لابد أن يعثر عليه رجال من ذوى البصيرة ، العاملين على التوفيق بين وحدة الطبيعة واستقرارها النسبى وبين تحول أشكالها المستمر . كيف يمكن التوفيق بين القول بالوحدة والقول بالتعدد ؟ ليس من المدهش أن تكون هذه النظرية عرضت للمفكرين الهنود وللمفكرين اليونان كل على حدة . وكان فى وسع اليونان والهنود أن يتوصلوا إلى هذا الحل بأنفسهم .

وما أجدرنا أن نشير إلى إحدى الروايات التى تعرض للأصل الشرق للمذهب الذرى ، فإن فيها ما يبعث على الدهشة . ينسب بوسيدونيوس (١٣٥ ق . م .) هذا المذهب إلى عالم فينيقى هو « موخوس » الصيداوى ، وينسبه فيلون البيبلوسى إلى عالم فينيقى آخر هو سانخونياتون البيروتى الذى ترجم فيلون هذا كتبه إلى اليونانية . وقد أثبت يوسيبيوس فى تاريخه قسما من هذه الترجمة (٤ — ١) ، ويقال إن كلا من موخوس وسانخانياتون عاش قبل حروب طروادة وأن الأخير عاش فى زمن سميراميس[٤٦] . وإذا اعتمدنا نص يوسيبيوس فإن أقوالهما بعيدة كل البعد عن مذهب لوكيبوس وديموكريتوس الذرى . ولعل الفينيقيين الذين كانوا تراجمة وسماسرة حاذقين نقلوا نظرية هندية ما ، أو لعلهم ابتدعوا نظرية جديدة وإن كان هذا ليس من المألوف لديهم .

ولما كنا نعرف اليونان والفينيقيين فلا يدهشنا قط أن يكون أولئك قد ابتدعوا النظرية الذرية . أما أن يكون هؤلاء قد فعلوا ذلك فمدهش حقًّا[٤٧] . والروايات الفينيقية لا تشفى غليلا ، لأن ديموكريتوس المتعطش للمعرفة وقع تحت تأثير عوامل شرقية مختلفة أثناء إقامته فى الشرق . إلا أن اكتشاف المذهب الذرى لا ينسب إليه بل إلى معلمه لوكيبوس .

وعندما نحكم على هذا المذهب اليونانى ينبغى أن نحترس من خطرين : الأول هو الخلط بينه وبين النظرية العصرية التى اكتشفها « دالتون » فى أوائل القرن التاسع عشر ، والثانى إسقاطه من تاريخ العلم من جراء غموضه ، فبين الفكرة اليونانية وفكرة دالتون بون شاسع ، وهو البون بين المفهوم الفلسفى الذى لا يمكن أن يمتحن ، والفرض العلمى الذى يتطلب سلسلة من الاختبارات

والتجارب . وبرغم ذلك لا ريب أن نظرية ديموكريتوس . فى الشكل الذى أعاده أبيقور إلى الحياة وروجه لوكريتوس بقيت حافزاً فكرياً خلال العصور . وإن كان قد أصابها إهمال من جراء تأثير العلماء المسيحيين واليهود ، فإنها لم تمت قط ، وسيرة ما أصابها من تقلبات من أروع السير فى تاريخ المعرفة .

السوفسطائيون : بروتاجوراس الأبديرى وجورجياس الليونتينى وأنتيفون الرامنوسى :

لنعد الآن إلى أثينا ولننظر إلى الجو الفكرى نظرة رجل مثقف عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس يحاول أن يفهم الكون المحيط به . وإذا استثنينا الأحوال السياسية التى كانت تزداد سوءاً كل يوم فلابد أن يقع صاحبنا فى حيرة من أمر العقائد المتناقضة التى كانت تثار وتبحث حوله . أيصدق هيراكليتوس أم بارمينيديس؟ أناكساجوراس أم أنبادوكليس؟ أم يتبع أصحاب المذهب الذرى؟ أو ليس من الأسهل والأضمن له أن يشترك فى الطقوس الدينية السرية وحفلات تكريم الأولياء ويقوم بواجباته كمواطن ويساهم فى الإيمان بالخرافات الشعبية ؟ أين الحقيقة فى كل هذا ؟ أمام هذا التساؤل الذى كان يزيد فى خطورته عدم الاستقرار الاقتصادى والسياسى ، لم يكن من الغريب أن يلجأ الإنسان الحسن الطوية إلى التعصب أو الشك أو إلى صورة من صور اليأس الأخرى . ما جدوى ذلك كله ؟ وهل ثمة حقيقة ؟ وهل يستطيع الإنسان الفانى أن يدركها ؟ وكان أعقد هذه الأسئلة هو إلى من تكل تربية أبنائك — إن وجدوا — فى ظروف كهذه ؟

كانت الحاجة إلى المعلمين ماسة جداً ، وقد تكونت طبقة منهم سداً لهذه الحاجة ، سموا بالسوفسطائيين ، وكان قبلهم طبعاً معلمون آخرون ، لأن أية مدنية لا تقوم بدونهم . وعنت كلمة سوفسطائى (sophistes) ، بحسب الاستعمال السائد حوالى آخر القرن الخامس ، معلماً للنحو والبيان والمنطق والفصاحة ، وكان محترفاً يعلم الشبيبة آداب السلوك والحكمة وسبل السعادة . وبعض هؤلاء السوفسطائية ، بل أكثرهم ، رجال أفاضل ، وفريق منهم من اللامعين نفعى ومراء ، وذلك أمر لا مفر منه . ويظهر أن عدد هذا الفريق

كان يزداد على مرور الزمن ، بحيث أخذ يلصق باسم سوفسطائى المعنى الذرى الذى احتفظ به حتى عصرنا هذا .

لا خير يرتجى من مصاحبة الأوغاد . ومع هذا من المفيد أن نتعرف على ثلاثة من سوفسطائيي العصر الذهبي الشهيرين . وهم براتاجوراس وجورجياس وأنتيفون . وقد خلد الأول والثانى فى محاورتين لأفلاطون تحملان اسميهما وتعطيان صورة ناطقة جميلة عنهما[٤٨].

بروتاجوراس الأبديرى :

ولد بروتاجوراس فى أبديرا ، بلد ديموكريتوس ، حوالى سنة ٤٨٥ . ولما بلغ سن الثلاثين أخذ يطوف فى أرجاء اليونان وصقلية واليونان الكبرى (Magna Graecia) يحاضر ويعلم . وكان أول من دعى سوفسطائيًّا . واستغل أول حصاد فكرى واجتماعى . وكان نجاحه عظيماً جدًّا حتى لقد جمع ، خلال أربعين سنة ، من التعليم عشرة أضعاف ما جمعه فيدياس من المال . وتردد على أثينا مراراً عديدة — وطالت بعض زياراته هذه ، وأصبح معروفاً فى تلك المدينة ، ونال حظوة عند بركليس . وكانت قصة نجاحه المادى هذه مؤسفة ومشئومة ، فقد حفزت كثيرين غيره على نهج مسلك يدر مثل ذلك المال ؛ وإن مهنة تعود بمثل ذلك النفع لمحفوفة بخطر عظيم . وقد ابتدأت هذه المهنة الجديدة بداية حسنة : ولا غرو أن تكون قد أخذت فى الانحطاط من سيئ إلى أسوأ ، وأن يحرز الجدال والسفسطة سمعة شائنة . ومما سهل نجاح بروتاجوراس أن فلسفته كانت ضرباً من النسبية الهيراكليتية . وهى فلسفة كثيراً ما يقبل عليها الناس فى عصر من الضجر والتبرم الزائد بالحياة . ويقول فى أحد كتبه التى تبحث عن الحقيقة : « إن الإنسان معيار كل شيء » . فليس هناك حقيقة مطلقة إذن . ومن أقواله الأخرى الأقل احتراساً : « أما الآلهة فلست أدرى إذا كانوا موجودين أم لا . فهناك أشياء كثيرة تحول دون معرفتنا ذلك . أولا غموض الموضوع . وثانياً قصر حياة الإنسان » . لقد كان هذا فوق ما تستطيع الديمقراطية الأثينية إساغته .

وكانت شديدة التأثر بما يمت إلى المسائل الدينية ونفد صبرها بسبب حوادث الكفر المتكررة[٤٩] . وفى سنة ٤١١ اتهم بروتاجوراس بالكفر فدعا المنادى بالمدينة جميع الذين اشتروا كتبه أن يجلبوها إلى السوق لكى تحرق[٥٠]. وقد أقصى عن أثينا . أو لعله حكم عليه بالموت وتمكن من الهرب ، ومع أنه استطاع أن يخدع قضاة أثينا فإنه لم يستطع أن يخدع القدر ، فقد تحطمت السفينة التى كانت تقله إلى النجاة وهلك .

ولابد لنا أن نضيف ملاحظة أخرى : كان السوفسطائيون يعلمون حسن الأداء ويشتمل على النحو ، لذلك كان بروتاجوراس ، وهو السوفسطائى الأول ، فى الوقت نفسه النحوى الأول ؛ فقد نبه إلى التأنيث والتذكير ، وميز بين زمان الأفعال وصيغها . وكان بالطبع أول معلم للمنطق العملى ، وسنعود إلى ذلك فيما بعد . ومن المفيد أن نلاحظ هنا ولادة النحو اليونانى[٥١] .

جورجياس الليونتينى :

بينما كان أول السوفسطائيين وأشهرهم من أبناء تراقيا ، كان منافسه الأكبر جورجياس من أبناء صقلية .

ولد جورجياس فى ليونتينى (على مقربة من سرقسطة) ، حوالى سنة ٤٨٥ . ولسنا نعرف تاريخ ولادته بالضبط . وكل ما نعرف أنه كان شيخاً حينما أوفد سنة ٤٢٧ سفيراً لمسقط رأسه إلى أثينا ، ويقال إنه عاش بعد موت سقراط ومات عن مائة عام. ويقال أيضاً إنه كان تلميذاً لأنبادوكليس . وقد تجول كثيراً مثل بروتاجوراس ، وقضى عدة سنوات فى أثينا . وجمع مالا كثيراً وأنفقه بسخاء . وكان فى سفسطته من نوع بروتاجوراس ، أو أسوأ منه . وإذا استندنا إلى المقتطفات القليلة الباقية ، وجدنا أنهما معاً كانا ميالين إلى الشك وإن كان بروتاجوراس أقرب إلى الفلسفة ، فى حين كان جورجياس مثالا للسفسطائى الغالى الضعيف الذكر ، أى الرجل الذى يزعم أن ما هو محتمل خير مما هو حقيقى ، وأن فى وسعه أن يجعل الأشياء التافهة جليلة ، والعكس بالعكس ، والمنطق

أو الخطيب الذى يهتم بالشكل أكثر من اهتمامه بالموضوع . وكانت لهجته أتيكية فصيحة . وكان مولعاً بالألفاظ الغريبة والاستعارات النادرة ، ومع ذلك فإن أفلاطون لا يقسو عليه كل القسوة فى المحاورة المدعوة باسمه . وقد كتبها فى الوقت الذى كتب فيه « الجمهورية » ، أى حوالى ٣٩٠ — ٣٨٧ ، عندما كان يعد العدة لافتتاح الأكاديمية . أما مشاهد الرواية فترقى إلى سنة ٤٠٥ ، عندما كان سقراط فى سن الرابعة والستين وجورجياس عجوزاً فى سن الثمانين وفى ذروة شهرته .

كان جورجياس يكتب مقالات خطابية وينشد أشعاراً رياضية ويلقى خطباً فى الأعياد فى أولمبيا ودلفى مبشراً بالسلام والوحدة . ولكن من يسيغ لنفسه أن يصغى إلى امرئ عرف من الجميع بأن غرضه الأول الفصاحة والإقناع ، وأن فى وسعه أن يتكلم فى طرفى الموضوع بالفصاحة نفسها ؟ ولكى يقنع المرء الآخرين ينبغى أن يقتنع هو أولا ، ولم يكن جورجياس مقتنعاً ذلك الاقتناع . وإذا سلمنا بماضيه الجدلى فإنه لم يكن كاذباً ولكن النجاح غشى على بصيرته .

أنتيفون الرامنوسى :

يمثل السوفسطائى الثالث ، صنفاً آخر يختلف عن السابقين ، ويساعدنا على تبين أن السوفسطائيين أنواع مختلفة : ولد أنتيفون فى رامنوس على مقربة من « مراثون » فى الوقت الذى ولد فيه السوفسطائيان الآخران تقريباً ، حوالى سنة ٤٨٠ ، واحترف الخطابة[٥٢] ، وكان زعيماً لمدرسة خطابية[٥٣] أشهر تلامذتها « ثوكيديديس » . وقد وصلنا من خطبه خمس عشرة ، أعدت كلها كى يلقيها غيره أو للتمرين . ولم يلق من خطبه العديدة سوى خطاب واحد أعده للدفاع عن نفسه سنة ٤١١ : إلا أن هذا الخطاب الذى لابد أن يكون أجمل خطبه وأبلغها قد ضاع . وكان أنتيفون إلى جانب ذلك من رجال السياسة واشترك فى حكومة الأربعمائة ، سنة ٤١١ ، وأعدم بعد سقوط تلك الحكومة .

وإلى جانب خطبه ألف كتيباً صغيراً يدعى « فن تفادى الكآبة »

(Techne alypias) وهو أول كتاب من ذلك الصنف الشائع الذى يعرف « بالتعازى » . فالناس يعانون ضروباً من الأسى . وليس بينهم من لم يذق طعم الحزن والشجن ، وهم يحتاجون جميعاً إلى العزاء : فكان طبيعياً أن يرحبوا بكتاب جيد فى التعزية . وقد كان لأنتيفون مقلدون عديدون فى جميع البلدان والعصور نكتفى بأن نذكر منهم « بوثيثيوس » ويوشع ليبمان[٥٤] .

كان بروتاجوراس وجورجياس وأنتيفون من خيرة السوفسطائيين . وإن لم يكونوا ممن تطيب لهم النفس ، وهم يساعدوننا على فهم الجو الفكرى السائد فى النصف الثانى من القرن الخامس . والمشاكل التى نشأت عن نشاط السوفسطائيين معروفة لدينا لأنها مشاكل التربية . وعندما يصبح المجتمع متحذلقاً — كما حدث للمجتمع اليونانى فى أواسط القرن الخامس — ظهرت فيه نزعة محتومة نحو استبدال نظام التربية القديم بنظام جديد يمكن معه أداء عناصر الثقافة الجديدة إلى الجيل الجديد . وهنا يبدأ النزاع بين الآباء والأبناء . ذلك النزاع الأزلى بين الأجيال المتلاحقة ، والذى يشتد كثيراً فى فترات التقدم الثقافى الفجائى ، ولا يوجد نوع من التربية ، مهما بلغت جودته ، يصلح لكل فرد ، ويمكن أن يقال إن خير نظم التربية قد يصلح الطلبة الجيدين ويفسد الطلبة الفاسدين . وحتى اليوم لا نزال نرى أن بعض الطلبة لا يستفيدون شيئاً من الجامعات سوى الغرور الذى يضاعف غباوتهم ، وواضح أنه لم يكن فى وسع خير السوفسطائيين أن يحول دون النزعات الشريرة لدى رجل كالقبياديس . إلا أن من المحقق ، كما أثبتت التجارب المتواترة ، أن نمطاً من أنماط التربية قد يصلح للطلبة ذوى الاستعداد الحسن ، ويضر بسواهم ممن ليس لهم ذلك الاستعداد . وفى النقد اليونانى المعاصر للسوفسطائيين مثال حى لذلك فى بعض روايات أريستوفانيس . « كأصحاب المأدبة » المفقودة (Daitaleis) التى مثلت سنة ٤٢٧ ، أو « السحاب » (Nephelai) التى أخرجت فى مهرجان « ديونيسيا » الأكبر سنة ٤٢٣ . ويخيل إلىّ أنه ليس من العسير أن نضع ثبتاً طويلا بروايات ألفت منذ أريستوفانيس إلى اليوم للتعبير عن تبرم الشيوخ بالتربية الجديدة ، وبيان

ما فيها من أخطار حقيقية حتى فى أروع أشكالها. ومما زاد فى حدة هذا النزاع فى أثينا ظروف الهزيمة فى الحرب وإسراف الخطباء الشعبيين والقلق الاقتصادى. ويظهر أنه كان هناك ما يستند إليه المحافظون فى إنحائهم على المربين المحدثين باللائمة. وكان الرجل العادى الحسن السيرة يخاف من نمو الشك والتهتك والتخلى التدريجى عن الطقوس القديمة واطراح العقائد العامة.

سقراط الأثينى :

كان يوريبيديس وسقراط بين السوفسطائيين الذين هزئ بهم «أريستوفانيس». وقد عرفنا الأول ونحن على وشك أن نعرف الثانى : وهو رجل من أنبل الرجال فى تاريخ البشرية جمعاء. وإن وصف أريستوفانيس له « بامرئ حقير »[٥٥] لهو وصف مغرض وسخيف : فقد خلط بينه وبين السوفسطائيين المرتزقين الذين كانوا « يجعلون أوهى الحجج تبدو أفضلها »، أو بينه وبين جماعة من المتحذلقين الذين كانوا يهتمون بالأمور السماوية (ta meteora) أو ما تحت الأرض (ta hypo tes ges) فوق اهتمامهم بواجبات الإنسان. ولم يكن سقراط من المشغلين بالسماويات[٥٦] قط ، وإن كان سوفسطائياً فى نظر الأثينيين - أى معلماً للأحداث ، ولذا أصابه نصيب من نقمتهم. وفى هذا ما يفسر سخرية أريستوفانيس وإن كان لا يبررها لأنه كان ينبغى أن يكون أعرف بحقيقة الموقف.

ولد سقراط فى أثينا سنة ٤٧٠ وكان أبوه « سوفرونيسكوس » نحاتاً، وأمه « فاينريت » قابلة. وكانا شخصين عاديين متوسطى الحال ، فى وسعهما أن يعلماه أفضل تعليم ممكن فى تلك الأيام. وقد تدرب على مهنة أبيه. ثم أظهر ولعاً مبكراً بالفلسفة. ومن السهل أن ينشأ فى أثينا ولع كهذا. وأن يروى غليل صاحبه. فقد كانت المناقشات الفلسفية تدور دوماً : فى المسرح أو السوق أو الشارع. وقد تعلم قسطاً من الحساب والهندسة وعلم الفلك. أما السياسة فكانت أكثر شيوعاً من الفلسفة ، وكان لابد منها اللهم إلا للبكم.

والتحق سقراط بالجندية واشترك فى القتال مراراً ، ولم يساهم فى الحياة العامة إلا مرتين ، أبدى فيهما شجاعة من الطراز الأول . وكان مظهره فريداً ، بسبب دمامته التامة ، فكان أفطس الأنف غليظ الشفتين يذكرنا بفلاح روسى من الطراز القديم ، إذا اعتمدنا على التمثال اللندنى[٥٧]. وكان قوى البنية قادراً على تحمل التعب المضنى ومكابدة المشقات وتقلبات الطقس إلى حد كان يدهش رفاقه . وزيه بسيط جداً ، يسير فى الشوارع دائماً حافى القدمين ، ولا يأكل إلا القليل ، لا عن زهد، فإنه لم يدع إلى إنكار الذات ، وإنما لأنه ، وهو يعيش عيشة البساطة جداً ، كان يؤثر ذلك النمط من الحياة .

أما شكاسة طبع امرأته « اكسانتيب »، فقد ذهبت مثلا . وقد يتساءل: ألم تكن هذه الشكاسة مبالغاً فيها لإبراز لطفه وطول أناته إبرازاً أتم ؟ وقد رزقت منه ثلاثة صبيان كان أكبرهم شاباً عند وفاة والده[٥٨]. وكان الاثنان الآخران أصغر كثيراً ، وهذا يدل على أن سقراط تزوج متأخراً نسبياً .

ولم يترك أى مؤلف ، ومعرفتنا به مستمدة من مؤلفات اثنين من تلامذته : أفلاطون واكسينوفان . والصورتان اللتان يرسمانها تتفقان فى الجوهر ، وإن اصطبغت الأولى بمثالية أفلاطون والأخرى بواقعية اكسينوفان . وفى المحاورات الأفلاطونية التى يظهر فيها سقراط ويتكلم ، يستحيل تعيين المقدار الذى ينبغى أن نعزوه إليه من خطبه ، والمقدار الذى ينبغى أن نعزوه لأفلاطون[٥٩]، وليس فى وسعنا أن نسند إلى الأول أمراً دون أن نسلبه من الثانى . ولكننا نجد فى اكسينوفان أداة صالحة للمقابلة والتصحيح ، فكلما اتفق هو وأفلاطون كنا واثقين كل الثقة . وإذا استثنينا بعض التفاصيل التى لا أهمية لها ، وجدنا صورة سقراط التى وصلتنا تبدو شديدة الشبه بالأصل . وليس بين القدماء امرؤ نعرفه معرفة أوفى : فبفضل فن أفلاطون وطيبة قلب اكسينوفان نكاد نراه ونسمع كلامه .

ورغم أنه قضى حياته يعلم الناشئة ، فإنه كان يختلف عن السوفسطائية إذ لم يكن معلماً محترفاً ، ولم يفتح مدرسة أو يعقد نادياً للدرس ، ولم يلق

محاضرات، ولم يطلب مالا لقاء تعليمه . والمقارنة بين الثروة التى جمعها رجال كبر وتاجوراس وجورجياس وبين فقر سقراط تنطق بذلك، وكان صاحبنا رجلا من طراز آخر، هذا إلى أنه كان يزدرى السوفسطائيين، ولم يتقاعس قط عن التشهير بشكهم وسطحيتهم .وهذا ما يجعل تهمة أريستوفانيس بغيضة إلى حد بعيد، : فقد اختار نموذجاً للسوفسطائيين خير خصومهم . وكيف كان فى وسع رجل له اطلاع أريستوفانيس أن يرتكب هذا الاتهام الجرىء ؟

تعطينا الفقرة التالية من « مذكرات اكسينوفان » (Memorabilia) فكرة عامة جيدة عن شخصية سقراط وشخصية اكسينوفان نفسه :

«كان سقراط يعيش دائماً خارج بيته : فكان يذهب فى الصباح الباكر إلى المتنزهات والملاعب العامة ، ويرى قبل الظهر فى السوق ، ويقضى سائر النهار حيث يلقى الناس عامة . وكان دأبه التحدث ، يصغى إليه من شاء . ولم يتحامل قط على الدين والعبادة : قولا أو فعلا . ولم يعرض لذلك الموضوع المحبب لدى عامة الخطباء « طبيعة الكون » — وتحاشى الخوض فيما يدعوه الأساتذة « بالكون المنظم » (Cosmos) وفى القوانين التى تخضع لها الظواهر السماوية : بل كان يقول على العكس إن الاشتغال بهذه المسائل جنون مطبق : كان يتساءل أولا : هل يحسب هؤلاء المفكرون أن معرفتهم بالشؤون البشرية كاملة، وأنه ينبغى لهم أن يبحثوا عن ميادين جديدة لترويض عقولهم ، أو أن واجبهم أن يهملوا الشؤون البشرية وينظروا فى الأمور الإلهية فقط ؟ وفوق هذا كان يعجب من تعاميهم عن إدراك أن الإنسان لا يستطيع حل هذه الألغاز ، لاسيما أن أشد المتكلمين فى هذه الأمور غروراً لم يتفقوا على رأى فيما بينهم ، بل نظر بعضهم إلى بعض نظرة المجانين ، فبعض المجانين لا يخشون خطراً ما ، فى حين يخاف بعضهم الآخر مما لا يبعث على الخوف . ويقول بعضهم أو يفعل ما شاء أمام الجمهور فى غير استحياء ، بينا يحجم بعضهم عن الظهور بين الناس ، وقد يحترم بعضهم هيكلا أو مذبحاً أو أى شىء مقدس آخر ، بينما يعبد غيرهم الأخشاب والحجارة والوحوش — وهذه هى حال من يبحثون عن

« الطبيعة الكلية ». فيحسب بعضهم أن الموجود واحد ، وبعضهم الآخر إنه لا متناهٍ فى العدد . ويقول قوم إن جميع الأشياء تتحرك دائماً . وآخرون إنه لا يتحرك شيء قط ، وقوم إن الحياة ليست إلا ولادة وانحلالا ، وآخرون إنه لا يولد شيء ولا يموت . وليست هذه كل الأسئلة التى كان يثيرها هؤلاء النظريون . وعلى عكس هذا فى وسع من يدرسون الطبيعة البشرية أن يطبقوا معلوماتهم فى الوقت المناسب لتحقيق خيرهم وخير من يشاءون من البشر . فهل يزعم الباحثون عن الظواهر السماوية أنهم متى اكتشفوا القوانين التى تتولد عنها : فسوف يصبح فى وسعهم أن يخلقوا الرياح والأمطار والفصول وما شابهها حسب حاجتهم ؟ أم تراهم لا يتوقعون شيئاً كهذا . بل هم قانعون بمعرفة أسباب هذه الظواهر المختلفة ؟

« هذا هو انتقاده للفضوليين الذين يتطفلون فى البحث عن هذه الأشياء . أما أحاديثه فكانت تدور حول الشؤون البشرية . فمن المشاكل التى كان يبحثها : ما البر وما الكفر ؟ ما الجميل وما القبيح ؟ ما العدل وما الظلم ؟ ما الحكمة وما الجنون ؟ ما الشجاعة وما الجبن ؟ ما الدولة وما السياسى ؟ ما الحكومة وما الحاكم ؟ فى العلم بهذه المشاكل وأشباهها ما يجعل المرء رجلا شهماً عنده . وفى الجهل بها ما ينطوى على « الذلة »[٦٠].

هذه الصورة التى يرسمها إكسينوفان بأسلوبه البسيط السائغ ممتعة جداً . لأنها تشير إلى الألغاز الفلسفية والعلمية التى كان على الأثينيين حلها والتى أدت إلى تمرد سقراط . وليست هذه اللفظة بقوية . فقد كان سقراط متبرماً من جراء التقلبات الناجمة عن الحروب الدائمة والمؤامرات السياسية والمشاكل الاقتصادية . شأن كل مواطن آخر . ومن جراء البحوث الصبيانية والمناقشات السوفسطائية الفارغة . ومن جراء فروض الفلاسفة وعلماء الطبيعة التى لا أساس لها . وقبل أن يوضح المرء الكون أليس من الأفضل أن يبدأ بترتيب منزله وشؤونه الخاصة ؟ وبدلا من أن نحاول فهم الأشياء التى لا تنال ألا ينبغى أن نوضح الأشياء التى نستطيع أن نسيطر عليها ؟ نحن بشر : ألا ينبغى أن نحاول أن نعرف أنفسنا

وسائر البشر قبل أى شيء آخر ؟ وهذا يذكرنا بقصة يرويها أريستوكسينوس التارنتى (٢ — VI ق . م .) : فقد التقى حكيم هندى بسقراط فى أثينا وسأله : « إنك تدعو نفسك فيلسوفاً . فبماذا تشتغل ؟ » فأجاب سقراط إنه يدرس الشؤون البشرية . فأخذ الهندى يضحك قائلا : إنه يستحيل للمرء أن يفهم الشؤون البشرية ما لم يدرك الشؤون الإلهية أولا . وهذه القصة طريفة من ناحيتين : أولا — لأنها تظهر بوضوح التقابل بين نمط التفكير السقراطى والهندى . وثانياً — هذا أحد الشواهد القاطعة على بعض الاتصال الحقيقى بين الفلاسفة اليونان والفلاسفة الهنود . وليس وجود هؤلاء فى مصر واليونان بمستبعد قط[٦١] .

وفى المحاورة الأفلاطونية « الكيبياديس الأولى (Alcibiades I) نجد جواباً جزئياً على الاعتراض الهندى . وتدور هذه المحاورة بين سقراط والكيبياديس وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، فتاريخها إذن سنة ٤٣٢ . وهما يتناقشان فى الجزء الثالث والأخير من المحاورة فى الحكمة الدلفية : « اعرف نفسك » . ويذهب سقراط إلى أن المرء يجب أن يتأمل فى نفسه ولا سيما الجزء الإلهى منها : إذا أراد أن يعرف نفسه ويخلص إلى هذه النتيجة : « هذا الجزء من النفس يشبه الله وكل من تأمله وتوصل إلى معرفة ما هو إلهى فاز بخير معرفة لنفسه »[٦٢]. ولكن هل «الكيبياديس» الأولى أصيلة ؟ يزعم بعض النقاد أنها أصيلة ولكنهم يذهبون إلى أنها من المؤلفات الأولى التى كتبت فى بدء القرن الرابع . أما آخرون فيحسبون أنها منحولة . ويورد «بيديز »[٦٣]هذه الفقرة عينها للتدليل على ذلك . وإذا فرضنا أن المحاورة أصيلة فهل تمثل الفقرة التى أشرنا إليها تفكير سقراط أم تفكير أفلاطون ؟ فقد تكون المحاورة أصيلة والكلمات المنسوبة إلى سقراط موضوعة .

أما اعتراض سقراط على علم الفلك الذى يعبر عنه اكسينوفان فهو يكاد لا يعلو عن مستوى النكتة الشعبية الأمريكية القديمة : « يتحدث الناس عن الطقس دائماً ولا يصنعون شيئاً من أجل تغييره » . لذلك كان من الغباوة والإجحاف أن يدعى سقراط ، كما سماه أريستوفانيس ، «حكيماً فى الأمور السماوية » (meteorosophist) إذ أنه كان على عكس ذلك تماماً . ونهاية عبارة

اكسينوفان المسرودة آنفا بليغة جداً : فهى تلخص الاتجاه الرئيسى لتعليم سقراط ، ويمكننا أن نضعها على هذا الوجه : « لنكن أكثر تواضعاً من علماء الطبيعة . وأكثر أمانة من السوفسطائية . فالمعرفة التى ينبغى أن نسعى للحصول عليها يجب أن تتكيف بحسب حاجاتنا الشخصية والاجتماعية . والمهم هو أن نعرف كيف نحيا حياة سعيدة وشريفة ، وأن نكون مواطنين أخياراً » .

كان ذلك يتطلب أسلوباً خاصاً ، هو بالنسبة إلى البشر عامة بمثابة الضمير بالنسبة إلى الفرد . يجب أن نبنى السياسة والأخلاق على أساس صحيح . ويجب أن نسخر الميتافيزيق للأخلاق . وإذا أردنا أن نناقش مناقشة مجدية ، فينبغى أن نحلل أحكامنا ونحدد المفردات التى نستعملها ، وندرك ما نتكلم عنه بالضبط . وينبغى أن نصنف الأشياء التى نعالجها ، فنحاول أن نعرف العلاقة بينها وبين الأشياء الأخرى ، وهذا يتطلب رسم كل لفظة وتحديدها . وعندها يمكننا أن نتقدم خطوة خطوة بالاستقراء (epagoge) ، أى بسرد جميع الجزئيات التى يجب معالجتها ، ونستخلص منها نتيجة منطقية . وقد دعا سقراط الفن الجدلى الذى كان يستعمله التوليد (maieutice) ، ذكرى لمهنة أمه ، فكان يستخلص بواسطة أسئلته المحكمة من الناس الذين كان يحادثهم الاعتراف بأخطائهم والإقرار بالحقيقة . وفى حديثه مع الخليلة « ثيودوتى (Theodote) » يذهب إلى أبعد من ذلك ، ويدعو نفسه « قوادا » فى معرض شرحه لها كيف تصطاد الخلان[٦٤] ، وهذه القصة شاهد حسن على سخريته وحماسته كمعلم . وما كان يرفض أن يتحدث مع كل من يصادفه فى الشوارع ، أو فى منزل أى صديق ، وأن يدخل معه فى النقاش عارضاً أحب آرائه إليه ، ومرغماً إياه على التسليم بصحتها .

كان سقراط أول علماء المعانى[٦٥] ، فقد كان يشرح للناس الذين كان يتحدث إليهم خطر استعمال « الألفاظ الضخمة » ، أو الألفاظ المجردة التى لم يكونوا ليفقهوا لها معنى .

كان يؤكد أن الفضيلة ضرب من المعرفة ، وأنه يمكن تعليمها ، والفضيلة

ΠΛΑΤΩΝΟΣ ἈΠΟ-λογία Σωκράτους, Ἠθικός.

PLATONIS APO-logia Socratis, Ad mores spectans.

VONAM modo, Athenienses, animi vestri accusatorum meorum oratione affecti fuerint atque comparati, nescio: equidē ipse illorom sermonibus ita sum concitatus, vt meipsius propemodum fuerim oblitus. ita accommodatè ad fidem & persuasionem dixerunt. quanquā nihil certè (vt vno verbo cōplectar) veri dixerunt. At inter multa quæ falsò protulerunt, illud vnum sum demiratus, quòd vos monuerint vt diligenter caueretis ne à me seduceremini, quasi dicendi facultate plurimùm valeam. Quòd autem minimè illos puduit eius rei, in cuius manifesto mendacio re ipsa à me continuò deprehendentur, vbi primùm à vobis ad dicēdum planè ineptus comperiar: illud verò omnium mihi visum est impudentissimū. Nisi fortè eum dicendi facultate valere dicant, qui verè dicit. Si enim huiusmodi intelligant, equidē (non ex illorum tamen sententia) me oratorem esse profitear. Atqui illi, quemadmodum prædixi, nihil veri dixerunt: vos contrà à me omnem veritatem percipietis. Non tamen per Iouem, Athenienses, elegantibus verborum sententiarúmq; ornamentis contextam orationem meam (cuiusmodi est illorum oratio) sed temerè & de medio petitos vulgaribúsque vocabulis enunciatos sermones audietis. Æqua tamen & iusta esse credo ea quæ sum dicturus: neque aliter vestrûm quisquā expectet. Neque enim consentaneum esset me hac ætate, tanquam puerū fictis sermonibus ad vos prodire. Verùm hoc vnum à vobis etiam atque etiam peto & efflagito, Athenienses, si eorundem illorum sermonū via & ratione qua cōsueui dicere & in foro & in nummulariorum mensis (quibus in locis & alijs vestrûm plerique me conspexerunt) defendentem me audiatis: illud, nec vobis mirū videatur, nec hac de causa tumultū excitetis. Sic enim omnino se res habet. nūc ego primùm in iudicium prodeo, annos plus sexaginta natus, vt in hoc quidem forensi genere dicendi planè sim peregrinus. Æquè igitur acsi reuera peregrinus essem, ita mihi veniam dandam statuitote, qui nimirum & iisdem verbis & eadem loquendi forma vtar, in

Me dicendum ab illis oratorē esse fatear. Natus illi &c.

B.iii.

(الشكل ٥٩) مطلع دفاع سقراط فى الطبعة اليونانية اللاتينية (٣ مجلدات ، جنيف ؟ هنريكوس ستيفانوس ١٥٧٨) (عن النسخة الموجودة فى مكتبة كلية هارفرد — Harvard Gollege) وناشر النص اليونانى هو هنرى إتين — هنريكوس ستيفانوس (١٥٢٨ — ١٥٩٨) . أما الترجمة اللاتينية فن عمل جان دى سير — يوهانس سيرادوس (١٥٤٠ — ١٥٩٨) . وهذان الكتابان مرتبان على ستة أعمدة ، وترقيم هذه الطبعة هو الترقيم الذى يرد فى كل طبعة علمية . مثلا : الصفحة أعلاه هى الصفحة ١٧ من المجلد الأول ، ونجد فى طبعة « مكتبة لويب (Lioeb Classcal Library) فى هامش مطلع « الدفاع » : St. I, P, 17. . راجع الشكل ٨١ من أجل صفحة العنوان .

الكبرى هى الاعتدال . وكانت فكرة الله عنده تختلف كل الاختلاف عن العقل المجرد (nus) عند أناكساجوراس ، وتقرب من فكرة العناية (pronoia) عندنا . وواجبنا أن نهتم بأنفسنا أولا ، ونشكر العناية الإلهية عليها . فوعينا لذاتنا هو جوهر ذاتنا . والتقوى من الفضائل الأساسية ، وأول شروطها النزوع نحو ما هو إلهى . وهكذا كان عند سقراط قدر من الصوفية[٦٦] ، التى ليست من الصنف الهندى . بل من صنف آخر يحكمه العقل والروية . وكان فيه أيضاً خلة من خلال المبشرين : فكان يؤمن أنه عهد إليه برسالة واضحة ، وهى الاهتمام بنفوس مواطنيه وتعليمهم الحق والخير . وكان لزاماً عليه أن يطيع تلك الأوامر . وهاك ما يقوله فى « دفاعه » الأبى (رسم ٥٩) .

« اعلموا أن الله يأمرنى أن أفعل ذلك ، وأنا أومن أنه لم تصب المدينة قط خيراً أعظم من وقف حياتى على خدمة الله . فأنا أطوف بينكم ولا همّ لى إلا حثكم صغاراً وكباراً ، ألاّ تحرصوا على سلامتكم أو على أموالكم فوق حرصكم على كمال ذواتكم حتى ولا مثل ذلك . وأنا أقول لكم إن الفضيلة لا تصدر عن المال ، بل عنها يصدر المال وجميع النعم الأخرى : سواء أكانت للفرد أو للمجتمع . وإذا كنت أفسد الشبيبة من جراء قولى لهذه الأشياء فتلك أمور مضرة إذن . ولكن إذا زعم أحد أننى أقول غير ذلك فهو كاذب . لهذا أقول لكم ، يا أهل أثينا ، اعملوا بنصيحة أنيتوس[٦٧] أو لا تعملوا . وخلوا سبيلى أو لا تخلوه ، ولكن ثقوا أننى لن أغير سيرتى حتى ولو مت مراراً وتكراراً[٦٨] . »

ويشرح سقراط فى « جورجياس » أنه خير للمرء أن يُظلم من أن يَظلم . وأن شقاء الرجل الظالم يهون إذا لحقه العقاب . وهذه المحاورة هى دفاع أفلاطون نفسه . ولا محل للشك فى أصالة ما يعزوه فيها من أفكار لسقراط . وينبغى أن نقتصر شكوكنا على الفروع والملاحق ، لأن الشاهد يصبغ شهادته بشعوره الخاص لا محالة .

كنا نحب أن نتابع سرد أقوال سقراط كما يقتبس المرء من الإنجيل . ولكن من الأفضل أن يرجع القارئ لمحاورات أفلاطون الأولى وإلى اكسينوفان ، لأن

جميع هذه الأقوال أشد وضوحاً فى سياقها الخاص ، وينبغى أن نبرز شخصية سقراط كاملة . ونجد أنه يختلف اختلافاً تامًّا ، لا عن السوفسطائيين وحسب ، بل عن الفلاسفة الذين سبقوه ، حتى وعن ديموكريتوس الحكيم . وقد أدخل شيئاً جديداً كل الجدة فى التجربة الإنسانية ، وهو الجمع بين الحكمة والقداسة واعتبر الأخلاق والسياسة جزءاً من الدين .

كانت شخصيته شاذة بعض الشذوذ ، فكان خشناً وساخراً فى الأغلب ، عقلىّ المنحى رغم نزعته الصوفية الغريبة التى ذكرناها آنفاً ، وكثيراً ما كان يشير إلى الوحى الإلهى الذى كان يرشده . ورقته الفريدة وجاذبيته الخاصة إنما تبدو فى بعض ألفاظ صوفية . كما نجد مثلا فى خطاب الكيبياديس فى « المأدبة » ، وعلى وجه أوسع فى المحاورة الأفلاطونية « تياجس »[٦٩] . وخير وسيلة للتدليل على عظمته الخارقة هى رواية قصة مماته .

كانت أفعاله التى يوردها تلامذته بريئة جدًّا . ولكن من السهل أن نتصور كم كانت سخريته جارحة لكبرياء لفيف من الناس ، وكم كانت بساطة حياته استنكاراً صامتاً لحياة أولئك الذين كان غرضهم الأول فى الدنيا الثراء بشتى الوسائل الشريفة أو غير الشريفة . والتمتع بالملذات . فكان سقراط بالفعل تقريعاً حيًّا لهم جميعاً ، ولاغرو إذا هم أبغضوه لذلك . ورغم حسن طويته كان له أعداء وطدوا العزم على هلاكه . وكانت الديمقراطية الأثينية تتصف بالتقوى التى تقرب من الإيمان بالخرافات . ونزعة سقراط العقلية رغم الصوفية التى كانت تخفف من حدتها ، مقلقة للأثينيين ، خصوصاً وصوفيته عينها تختلف كل الاختلاف عن تعصب مواطنيه بحيث كانت داعياً لشكوى أخرى . وقد رحب أعداء سقراط وحساده بافتراءات أريستوفانيس ، لأنهم لم يطيقوا استقامته ، ونمقوا هذه الافتراءات وروجوها . وسنة ٣٩٩ على أثر سقوط الطغاة الثلاثين وجه إليه الاتهام التالى : « إن سقراط آثم لإنكاره آلهة الدولة الرسميين وإقحام آلهة غريبة ، وهو آثم كذلك لإفساده الشبيبة » . وإزاء ذلك حكم عليه بتجرع السم وقتل نفسه بيده . وينبغى أن نضيف فى معرض الثناء على

الديمقراطية الأثينية ، أنه كاد يبرأ ، لأن الحكم بإدانته لم يفز إلا بأكثرية ٣٠ من ٥٠١ صوت . وكان من اليسير أن تصوت هذه الأكثرية فى مصلحته لو أنه حاول أن يكسب عطف « المجمع الأثينى » بالكلام اللبق ، أو لو أنه دافع عن نفسه دفاعاً جدياً . ولكنه فعل عكس ذلك : فكان دفاعه آية من آيات السخرية ، وخطابه كفيلا بتأليب ذوى العقول الضيقة عليه(٧٠).

وقد صدر الحكم غداة سفر السفن المقدسة إلى « ديلوس » ، ولم يكن من الممكن تنفيذه قبل عودتها ، أى بعد ذلك بشهر ، إلا بخرق الطقوس الدينية . وهكذا استطاع أن يبقى شهراً كاملا فى السجن تمكن ، بفضل رفق الأثينيين من قضاته ، من التحدث إلى عائلته وأصدقائه(٧١). وقد حفظت أحاديثه هذه فى محاورات أفلاطون(٧٢) — لا سيما فى محاورتين خالدتين : « أقريطون » (فى الواجب) و « فيدون » (فى النفس) . كان أقريطون صديقاً حميماً لسقراط ، ورجلا من أصحاب اليسار ، وكان يزوره فى السجن ويحاول إقناعه بالهرب . ومن المحتمل أن القضاة أنفسهم كانوا يرحبون بهذا الحل ، لكنه رفضه . لأن واجب المواطن الأول ، عنده ، أن يطيع شرائع الدولة ولو كان تطبيقها مجحفاً . وما كان الظلم ليقاوم بالظلم . وإذا كانت المدينة قد حكمت عليه بالموت فكل فرار من هذه البلية ضرب من الخيانة ، ولابد له أن يموت . هذه المحاورة أروع دفاع عن القوانين عرفه التاريخ . وهى من تأليف أفلاطون بالطبع ، ولكنها تمثل آراء سقراط لأنه فى الواقع لم يحاول الهرب .

نجد فى «فيدون» (رسم ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢) الحديث الذى دار بين ثمانية أشخاص فى السجن أثناء أيام سقراط الأخيرة وذكر عدد كبير غيرهم أن الفيلسوف سعيد بالموت ، لأن المثل أزلية ، ونفسه سوف تخلد بعد ذلك . وتنتهى « فيدون » بوصف لوفاته يقتضى إيراده هنا كاملا :

« ولما فرغ من هذه العبارة ، نهض ودخل غرفة الحمام ، يصحبه أقريطون ، الذى أشار إلينا بأن ننتظر ، فانتظرنا نتحدث ونفكر فى أمر الحوار وهول المصاب . وكنا كمن فقد أباه ، وقضى عليه أن يعيش ما بقى من أيامه كالأيتام ،

ΚΡΊΤΩΝ. 29

περὶ ἀδελφοὶ οἱ ἐν ᾅδου νόμοι, οὐκ εὐμενῶς σε ὑποδέξονται, εἰδότες ὅτι καὶ ἡμᾶς ἐπεχείρησας ἀπολέσαι τὸ σὸν μέρος. ἀλλὰ μή σε πείσῃ Κρίτων ποιεῖν ἃ λέγει μᾶλλον ἢ ἡμεῖς. ταῦτα ὦ φίλε ἑταῖρε Κρίτων εὖ ἴσθι ὅτι ἐγὼ δοκῶ ἀκούειν ὥσπερ οἱ κορυβαντιῶντες τῶν αὐλῶν δοκοῦσιν ἀκούειν, καὶ ἐν ἐμοὶ αὕτη ἡ ἠχὴ τούτων τῶν λόγων βομβεῖ, καὶ ποιεῖ μὴ δύνασθαι τῶν ἄλλων ἀκούειν. ἀλλὰ ἴσθι ὅσα γε τὰ νῦν ἐμοὶ δοκοῦντα, ἐάν τι λέγῃς παρὰ ταῦτα, μάτην ἐρεῖς. ὅμως μέντοι εἴ τι οἴει πλέον ποιήσειν, λέγε. ΚΡ. Ἀλλ᾽ ὦ Σώκρατες οὐκ ἔχω λέγειν. ΣΩ. Ἔα τοίνυν ὦ Κρίτων καὶ πράττωμεν ταύτῃ, ἐπειδὴ ταύτῃ ὁ θεὸς ὑφηγεῖται.

τέλος τοῦ Κρίτωνος ἢ περὶ πρακτοῦ.

ΦΑΙΔΩΝ, Ἢ ΠΕΡῚ ΨΥΧῆΣ.

ΤᾺ ΤΟΥ͂ ΔΙΑΛΌΓΟΥ ΠΡΌΣΩΠΑ.

Ἐχεκράτης. Φαίδων. Ἀπολλόδωρος. Σωκράτης. Κέβης. Σιμμίας. Κρίτων, ὁ τῶν ἕνδεκα ὑπηρέτης.

Αὐτὸς ὦ Φαίδων παρεγένου Σωκράτει ἐκείνῃ τῇ ἡμέρᾳ, ᾗ τὸ φάρμακον ἔπιεν ἐν τῷ δεσμωτηρίῳ, ἢ ἄλλου του ἤκουσας. ΦΑΙ. Αὐτὸς ὦ Ἐχέκρατες. ΕΧ. Τί οὖν δή ἐστιν ἅττα εἶπεν ὁ ἀνὴρ πρὸ τοῦ θανάτου, καὶ πῶς ἐτελεύτα; ἡδέως γὰρ ἂν ἐγὼ ἀκούσαιμι. καὶ γὰρ οὔτε τῶν πολιτῶν Φλιασίων οὐδεὶς πάνυ τι ἐπιχωριάζει τὰ νῦν Ἀθήναζε, οὔτε τις ξένος ἀφῖκται χρόνου συχνοῦ ἐκεῖθεν, ὅστις ἂν ἡμῖν σαφές τι ἀγγεῖλαι οἷός τ᾽ ἦν περὶ τούτων, πλήν γε δὴ ὅτι φάρμακον πιὼν ἀποθάνοι, τῶν δ᾽ ἄλλων οὐδὲν εἶχε φράζειν. ΦΑΙ. Οὐδὲ τὰ περὶ τῆς δίκης ἄρα ἐπύθεσθε ὃν τρόπον ἐγένετο; ΕΧ. Ναί, ταῦτα μὲν ἡμῖν ἤγγειλέ τις, καὶ ἐθαυμάζομέν γε ὅτι πάλαι γενομένης αὐτῆς, πολλῷ ὕστερον φαίνεται ἀποθανών. τί οὖν ἦν τοῦτο ὦ Φαίδων; ΦΑΙ. Τύχη τις αὐτῷ ὦ Ἐχέκρατες συνέβη. ἔτυχε γὰρ τῇ προτεραίᾳ τῆς δίκης ἡ πρύμνα ἐστεμμένη τοῦ πλοίου ὃ εἰς Δῆλον Ἀθηναῖοι πέμπουσι. ΕΧ. Τοῦτο δὲ δὴ τί ἐστι; ΦΑΙ. Τοῦτ᾽ ἔστι τὸ πλοῖον ὥς φασιν Ἀθηναῖοι, ἐν ᾧ Θησεύς ποτε εἰς Κρήτην τοὺς δὶς ἑπτὰ ἐκείνους ᾤχετο ἄγων, καὶ ἔσωσέ τε καὶ αὐτὸς ἐσώθη. τῷ οὖν Ἀπόλλωνι ηὔξαντο ὡς λέγεται τότε, εἰ σωθεῖεν, ἑκάστου ἔτους θεωρίαν ἀπάξειν εἰς Δῆλον. ἣν δὴ ἀεὶ καὶ νῦν ἔτι ἐξ ἐκείνου κατ᾽ ἐνιαυτὸν τῷ θεῷ πέμπουσιν. ἐπειδὰν οὖν ἄρξωνται τῆς θεωρίας, νόμος ἐστὶν αὐτοῖς ἐν τῷ χρόνῳ τούτῳ καθαρεύειν τὴν πόλιν, καὶ δημοσίᾳ μηδένα ἀποκτιννύναι, πρὶν ἂν εἰς Δῆλον ἀφίκηται τὸ πλοῖον, καὶ πάλιν δεῦρο. τοῦτο δ᾽ ἐνίοτε ἐν πολλῷ χρόνῳ γίγνεται, ὅταν τύχωσιν ἄνεμοι ἀπολαβόντες αὐτούς. ἀρχὴ δ᾽ ἐστὶ τῆς θεωρίας, ἐπειδὰν ὁ ἱερεὺς τοῦ Ἀπόλλωνος στέψῃ τὴν πρύμναν τοῦ πλοίου. τοῦτο δ᾽ ἔτυχεν ὥσπερ λέγω τῇ προτεραίᾳ τῆς δίκης γεγονός. διὰ ταῦτα καὶ πολὺς χρόνος ἐγένετο τῷ Σωκράτει ἐν τῷ δεσμωτηρίῳ ὁ μεταξὺ τῆς δίκης τε καὶ τοῦ θανάτου. ΕΧ. Τί δὲ δὴ τὰ περὶ αὐτὸν τὸν θάνατον ὦ Φαίδων; τί ἦν τὰ λεχθέντα καὶ πραχθέντα, καὶ τίνες οἱ παραγενόμενοι τῶν ἐπιτηδείων τῷ ἀνδρί, ἢ οὐκ εἴων οἱ ἄρχοντες παρεῖναι, ἀλλ᾽ ἔρημος ἐτελεύτα φίλων; ΦΑΙ. Οὐδαμῶς, ἀλλὰ παρῆσάν τινες καὶ πολλοί γε. ΕΧ. Ταῦτα δὴ πάντα προθυμήθητι ὡς σαφέστατα ἡμῖν ἀπαγγεῖλαι, εἰ μή τίς σοι ἀσχολία τυγχάνει οὖσα. ΦΑΙ. Ἀλλὰ σχολάζω γε καὶ πειράσομαι ὑμῖν διηγήσασθαι. καὶ γὰρ τὸ μεμνῆσθαι Σωκράτους, καὶ αὐτὸν λέγοντα καὶ ἄλλου ἀκούοντα, ἔμοιγε ἀεὶ πάντων ἥδιστον. ΕΧ. Ἀλλὰ μὴν ὦ Φαίδων καὶ τοὺς ἀκουσομένους γε τοιούτους ἑτέρους ἔχεις. ἀλλὰ πειρῶ ὡς ἂν δύνῃ ἀκριβέστατα διεξελθεῖν πάντα. ΦΑΙ. Καὶ μὴν ἔγωγε θαυμάσια ἔπαθον παραγενόμενος. οὔτε γὰρ ὡς θανάτῳ παρόντα με ἀνδρὸς ἐπιτηδείου ἔλεος εἰσῄει. εὐδαίμων γάρ μοι ὁ ἀνὴρ ἐφαίνετο ὦ Ἐχέκρατες καὶ τοῦ τρόπου καὶ τῶν λόγων, ὡς ἀδεῶς καὶ γενναίως ἐτελεύτα, ὥστε μοι ἐκεῖνον παρίστασθαι μηδ᾽ εἰς ᾅδου ἰόντα ἄνευ θείας μοίρας ἰέναι, ἀλλὰ καὶ ἐκεῖσε ἀφικόμενον εὖ πράξειν, εἴπερ τις πώποτε καὶ ἄλλος. διὰ

(شكل ٦٠) أول « فيدون » ، ص ٢٩ من النص اليوناني لمؤلفات أفلاطون الرئيسية (مجلدان) فينيس : ألدوس ومرتوس موزوروس ١٥١٣) "عن النسخة الموجودة في مكتبة كلية هارفرد" . وكل المحاورات مقسمة إلى أربعات ، والأربعة الأولى هي المحاورات السقراطية ، وتدور حول محاكمة سقراط وموته . انظر شكل ٨٠ .

فلما استحم جئ له بأبنائه — (وكانوا طفلين صغيرين ويافعاً) ، كما وفدت نساء أسرته ، فحادثهن وأوصاهن ببعض الوصايا على مسمع من أقريطون ، ثم صرف النساء وعاد إلينا .

وكانت قد دنت ساعة الغروب ، فقد قضى داخل الحمام وقتا طويلا ، وعاد بعد اغتساله فجلس إلينا ، ولكنا لم نفض فى الحديث . وما هى إلا أن جاء السجان ، وهو خادم الأحد عشر ، ووقف إلى جانبه وقال : لست أتهمك يا سقراط بما عهدته فى غيرك من الناس ، من سورة الغضب والصياح عندما آمرهم بتجرع السم ، انقياداً لإرادة أولى الأمر . أما أنت فقد رأيتك أنبل وأرق وأفضل رجل وفد على هذا المكان ، ولا يخامرنى شك أنك لن تنقم علىّ ، فليس الذنب ذنبى كما تعلم ، إنما هى جريرة سواى . والآن ؛ وأنت تعلم الرسالة التى أحملها إليك ، وداعاً !وحاول أن تحتمل راضياً ما ليس من وقوعه بد ، ثم أدار ظهره وخرج منفجراً بالبكاء .

فنظر إليه سقراط وقال : وداعاً ! سوف أصنع ما تريد . ثم التفت إلينا وقال : يا له من رجل لطيف ! إنه ما انفك يزورنى فى السجن ، يحادثنى الحين بعد الحين ، ويعاملنى بالحسنى ما وسعته ، وانظروا إليه الآن كيف يبكى شهامة من أجلى ، فلزام علينا يا أقريطون أن نفعل ما يريد . مر أحداً أن يجىء بالكأس إن كان قد تم إعداد السم ، وإلا فليعده الرجل .

« فقال أقريطون : ولكن الشمس لا تزال ساطعة فوق التلاع ، وكثير ممن سبقوك لم يجرعوا السم إلا فى ساعة متأخرة بعد إنذارهم . إنهم كانوا يأكلون ويشربون وينعمون بصحبة أحبائهم فلا تتعجل إذن ، إذ لا يزال فى الوقت متسع .

« فقال سقراط : نعم يا أقريطون ، لقد أصاب من حدثنى عنهم فيما فعلوا ، لأنهم يحسبون أن وراء التأجيل نفعاً يجنونه ، أما أنا فلقد أكون مصيباً إذا لم أفعل كما فعلوا ؛ لأننى لا أظن أنى سأجنى من تأخير شراب السم نفعاً ما . ولو فعلت ذلك لسخرت من نفسى لتشبثها بالحياة ولم يعد فيها نفع يرتجى . أرجو إذن أن تفعل كما أشرت ، ولا تخالف رغبتى .

LONDON Printed for J. Magnes and R. Bently.

(شكل ٦١) غلاف الترجمة الإنجليزية الأولى "لدفاع سقراط" و "فيدون" (لندن ١٦٧٥) (عن النسخة الموجودة فى كلية هارفرد).

« فلما سمع أقريطون هذا ، أشار إلى الخادم فخرج ، ولم يلبث أن عاد بعد غياب طويل يصحبه السجان يحمل كأس السم ، فقال سقراط حين رآه : أى صديقى العزيز ، إنك عارف بهذه الأمور ، فأرشدنى ماذا أصنع ؟ فأجاب الرجل : تشرب السم وتسير قليلا حتى تثقل ساقاك ثم ترقد ، فيسرى السم . وهنا ناول سقراط الكأس فحدق فى الرجل بعينيه الواسعتين ، وأخذ القدح برفق دون أن يرتجف أو يمتقع لونه ، ثم قال : يا إخيكراتيس ماذا ترى إن أنا أرقت جرعة من هذه الكأس على اسم أحد الآلهة ، أفيجوز هذا أم لا يجوز ؟ فأجاب الرجل : إننا لا نعد السم يا سقراط إلا بمقدار ما نظنه كافياً . فقال : فهمت ، ومع ذلك يحق لى بل يجب علىّ أن أضرع إلى الآلهة أن تكون رحلتى عن هذا العالم ميمونة ، فعسى أن تجيب دعائى ! ثم رفع الكأس إلى شفتيه وشرب السم حتى الثمالة رابط الجأش مغتبطاً ، وقد استطاع معظمنا أن يكبح جماح حزنه حتى تلك الساعة ، أما وقد رأيناه يشرب السم ، وشهدناه يأتى على الجرعة كلها ، فلم يعد للصبر سبيل ، وانهمر منى الدمع مدراراً على الرغم منى ، وسترت وجهى بثوبى وأخذت أندب نفسى : حقاً إنى لم أكن أبكيه ، بل أبكى فجيعتى وفقدانى مثل هذا الرفيق . ولم أكن أول من فعل هذا ، فإن أقريطون لم يعد قادراً على حبس عبراته أيضاً ، فنهض وابتعد ، وهنا أجهش أبوللودورس الذى لم ينقطع نحيبه طول الوقت بالبكاء فأجهشنا جميعاً ؛ ولم يحتفظ منا بالهدوء سوى سقراط . وقال : ما هذا التصرف الغريب أيها الناس ؟ لقد صرفت النسوة خاصة لهذا السبب ، كى لا يتصرفن على هذا النحو المخزى ؛ وقد سمعت أنه خير للإنسان أن يسلم الروح فى صمت ، فهدئوا من روعكم واصبروا .

فلما سمعنا ذلك اعترانا الخجل وكفكفنا دموعنا . وأخذ سقراط يطوف حتى بدأت ساقاه تخوران — كما قال — ثم استلقى على ظهره ، كما أشار السجان عليه ، ولمسه الرجل الذى ناوله السم بيده ، وبعد حين فحص قدميه وساقيه ، ثم غمز قدمه بقوة وسأله : هل أحس ؟ فأجاب أن لا ؛ ثم غمز ساقه وما زال

PLATO his

APOLOGY of *SOCRATES*;

AND

PHÆDO or Dialogue concerning the

Immortality of Mans Soul,

AND

Manner of SOCRATES his Death:

Carefully tranflated from the *Greek*,

AND

Illuftrated by Reflections upon both the *Athenian* Laws, and ancient Rites and Traditions concerning the Soul, therein mentioned.

Quintilianus inftitut. Orator. lib. 10 cap. 5.
Vertere Græca in Latinum *veteres noftri Oratores optimum judicabant. Id fe* L. Craffus *in illis* Ciceronis *de Oratore libris dicit factitaffe. Id* Cicero *fua ipfe perfona frequentiffime præcipit: quin etiam libros* Platonis [Timæum *nempe, quem infcripfit* de Univerfitate] *atq;* Xenophontis *edidit hoc genere tranflatos.*

LONDON,
Printed by *T. R.* & *N. T.* for *James Magnes* and *Richard Bentley* at the *Poft-Office* in *Ruffel-ftreet* in *Covent-Garden*, 1675.

(شكل ٦٢) صفحة العنوان من الترجمة الإنجليزية الأولى " لدفاع سقراط " و " فيدون " ، والمترجم غير معروف (عن النسخة الموجودة فى كلية هارفرد) .

يرق عضواً عضواً ، مشيراً لنا كيف أخذ يبرد ويتصلب ؛ ثم لمس جسده وقال : ستكون الخاتمة حين يصل السم إلى القلب . فلما أخذت البرودة تتمشى فى أعلى فخذيه كشف سقراط عن وجهه ، إذ كان قد دثر بغطاء ، وقال : (وكانت هذه آخر كلماته) إننى يا أقريطون مدين بر بك لإيسكولابيوس فهل أنت ذاكر أن ترد هذا الدين ؟ فأجاب أقريطون إنه سيوفى الدين . ثم سأله إن كانت لديه رغبة أخرى فلم يكن لهذا السؤال جواب ؛ وما هى إلا دقيقة أو دقيقتان حتى تحرك ؛ فكشف عنه الخادم ؛ وكانت عيناه قد جمدتا ؛ فأقفل أقريطون فمه وعينيه .

هكذا يا إخيكراتيس قضى صديقنا الذى أدعوه بحق خير من عرفت من الناس ، وأحكمهم وأعظمهم براً » .

وللمقارنة برواية أفلاطون هاكم إشادة اكسينوفان الأخيرة بمعلمهما :

« وكل من يعرف من أى نمط من الرجال كان سقراط . وكل من ينشد الفضيلة ما زال حتى اليوم يحزن لفقده أكثر من أى امرئ آخر ، لأنه كان أكبر عون فى البحث عن الفضيلة . أما أنا فقد وصفته كما كان : تقيًّا بحيث لم يصنع شيئاً إلا بمشورة الآلهة ، وعادلا بحيث لم ينزل أى أذى مهما صغر بأى إنسان — بل كان يغدق على كل من يعامله أعظم ضروب النفع ؛ ضابطاً لنفسه بحيث لم يختر قط السبيل الأسهل عوضاً عن السبيل الأفضل ، حكيماً بحيث لم يخطئ قط فى التمييز بين الأفضل والأسوأ ولم يحتج إلى مشير ، بل كان يعتمد على نفسه فى معرفتهما : حاذقاً فى شرح هذه الأشياء وتحديدها وامتحان الآخرين وإقناعهم بخطئهم وحثهم على اقتباس الفضيلة والرفق . وهكذا كان عندى مثالا للرجل العادل والسعيد حقًّا . أما إذا شك شاك فليقارن خلق غيره من الرجال بهذه المزايا ثم دعه يحكم لنفسه[٧٤] » .

ولما كان هذا الكتاب موجهاً إلى رجال العلم فمن المفيد أن نضيف بعض الملاحظات الطبية : « بعد وصف أفلاطون لموت سقراط نموذجاً طبيًّا كلاسيكيًّا ،

فهو يتفق اتفاقاً تاماً مع ما يتوقعه المرء فى ظروف مماثلة اليوم . فالسم هو الشوكران : أى الثمرة المجففة والنامية غير اليانعة لشجرة (Conium meculatum) ويسحق عادة بعد التجفيف ، ويحوى نحو نصف فى المائة من مادة الكونيين . اكتشف « جيسكى » هذه المادة القلوية سنة ١٨٢٧ . وهى مادة « البروبيلبردين » (propylpyridine) الكيماوية البسيطة . ونجد فى ألكونيوم مواد قلوية أخرى من الأسرة ذاتها ، وفعلها البيولوجى كلها واحد : وينحصر فى شل الأطراف القصوى فى أعصاب الحركة . ويبدأ الفعل فى أقصى الأطراف ثم يمتد بسرعة إلى غشاء القلب ، وعندما يقف هذا الغشاء عن الحركة يصاب المرء بالاختناق . فالموت — وثمة أدلة تشير إلى أنه ينشأ عنه شل للأعصاب الحساسة ، إلا أن ذلك ليس واضحاً وضوح شل أعصاب الحركة . وقد أثبت هاياشى (Hyashi) وموتو (Muto) أن عصب غشاء القلب (Phrenic) أشد حساسية من سائر الأعصاب . وهذا العصب يشرف على حركة غشاء القلب (Arch. Exp. Path. Pharmakol 48, 1910) ، ونجد وصفاً لفعل الكونيوم فى أى مؤلف جيد فى علم الصيدلة [٧٥].

كانت إدانة سقراط عملا شائناً لا يغتفر ، وإن كانت طريقة إعدامه شريفة ورحيمة . وعندما نقارنها بطرق الإعدام الفظيعة السرية المتبعة فى عدد من البلدان فى زماننا هذا ، لا على يد أفراد مجرمين بل بأوامر الحكومات ، يندى جبيننا خجلا .

أما وفاته فكانت على غاية ما يكون من الجلال . فلم يكن فى كلامه مرارة أو غضب أو شتم ، بل كانت وفاة رجل فاضل ونبيل . وهى تختلف فى وقارها وروعتها عن الوفيات التى نجدها مرسومة على بعض نواويس ذلك العهد المنحوتة [٧٦] .

من الثابت أن ملابسات وفاة سقراط ساعدت كثيراً على ذيوع صيته . فقد أدت أولا إلى إكرام تلاميذه الأقربين وتقديسهم له ، وبعد ذلك إلى إلهاب حماسة أفلاطون واكسينوفانيس اللذين حفظا أفكاره ودفعا بها إلى السلف

ووفاة سقراط ما هى إلا خاتمة رائعة لجهود الفلاسفة اليونان الذين سعوا طيلة أكثر من قرن للوصول إلى الحقيقة. فقد أسبغت مسحة القداسة على الحكمة التى كشفها إلى حدما من خلال بحوثهم ، وبفضل عبقريته وقداسته هو .

وكان بين الأصدقاء الذين شهدوا اللحظات الأخيرة من حياته إخيكراتيس الفليوسى ، أحد متأخرى الفيثاغوريين وفيدون الأليسى وأبوللودورس الفليرونى ، وكيبس[٧٧] وسمياس وكلاهما من طيبة ، وأقريطون الأثينى وابنه أقريطوبولس وايسخينيس السقراطى وأنتستانس الأثينى وأقليدس الميجارى . ومن المدهش أن خمسة من تلامذة سقراط المقربين (منهم ثلاثة كانوا بقربه عند وفاته) من مؤسسى مدارس فلسفية : أعنى فيدون الذى أسس مدرسة فى مسقط رأسه « أليس » ، وإقليدس مؤسس المدرسة الميجارية ، وأنتستانس مؤسس المدرسة الكلبية (Cynic) والاثنان اللذان لم يشهدا الوفاة : أرستيبوس البرقاوى ، مؤسس المدرسة البرقاوية ، وأفلاطون ، وكانت علة غياب الأخير مرضه ، كما ذكر فى « فيدون » ، ولا داعى للشك فى كلامه . ويمكننا أن نقول إن الفلسفة اليونانية كلها بعد القرن الخامس كانت متأثرة بسقراط . وينبغى ألا ننسى أن سقراط ترك أثراً عميقاً ، خلال عمله الطويل ، كمعلم متجول ومرشد ، على عقول أناس لم يكونوا فلاسفة أو كتاباً ، واستطاعوا أن ينشروا آراءه ، ومنهم أشخاص شريرون أقوياء مثل كريتياس والكيبياديس وعدد كبير غيرهما ممن لم يتميزوا بفضيلة أو رذيلة ولم تحفظ أسماؤهم . لقد كان سقراط أول واضع لنظام أخلاقى من فلاسفة اليونان، وأول من قدم القيم الأخلاقية على كل ما عداها . ومنذ ذلك الحين أخذت الأفكار السياسية والأخلاقية تحتل مكاناً أرفع . ولا نغالى إذا قلنا إن جميع المؤلفات الغربية فى هذا الموضوع تنبع مباشرة أو بالواسطة من تعاليمه . فهيمنت حياته ووفاته على الأخلاق فى العالم الغربى كله ، ولم يمح أثرهما أو يتضاءل من جراء ظهور المسيحية .

* * *

هذا تاريخ للعلم لا للفلسفة ، وقد قيل أحياناً إن أثر سقراط المبرور على

الفلسفة كان وبالا على العلم . وقد يدعوه بعض النقاد رجعيًّا من جراء ثورته على أصحاب الفلك والآثار العلوية وجميع الذين انصرفوا إلى النظر فى الأشياء السماوية وتحت الأرضية عوضاً عن الحياة البشرية العادية . ويذهب « أولمستيد » إلى أبعد من ذلك زاعماً أن تأثير سقراط على العلم كان كارثة (٧٨) . وهذا صحيح فى الظاهر فقط لا فى الواقع . فرجال العلم الذين رافقونى حتى هذه المرحلة وقرأوا سيرة الفلاسفة السابقين لسقراط أصبحوا فى الراجح متبرمين ومتمردين تمرد سقراط نفسه . لقد كان أسلوبهم العلمى فاسداً ، وتأملاتهم المبنية على معلومات غير وافية لا غناء فيها ، وكثيراً ما كانت نظرياتهم الفلكية سخيفة ، وبذا أخطأوا سواء السبيل جملة ، ولو أجيز (كما أجيز أنا) أن هذه المغامرات كانت ضرورية ولا مناص منها ، فإنها استمرت أمداً طويلا ، ويبدو أن فلاسفة القرن الخامس استنفدوا جميع التخيلات الممكنة فى عصرهم ، وكان فى جرأتهم شىء يدعو إلى الإعجاب وإن أسرفوا فى ذلك . وكان من اللازم التوقف ، وذلك ما دعا إليه سقراط ، وإذا كان قد تطرف فى ذلك ، فإنه لم يكن هناك مناص منه ، ولعله لم يكن فى وسع امرئ آخر أن يجيد ما فعله كما أجاد .

وفوق هذا ، بين أفكاره ما يعد مساهمة إيجابية ضرورية لتطور العلم فى المستقبل، فثمة أولا تمسكه بالتحديد والتصنيف الواضحين ، ولا جدوى فى المناقشة إذا لم نكن نعرف على أدق وجه ممكن الموضوع الذى نتكلم عنه ، وهذا شىء أساسى فى العلم أكثر منه فى الفلسفة . ثانياً : كان يستخدم أسلوباً جيداً للجدل والكشف المنطقى (وهو ما دعاه بفن التوليد.) ، ويجب أن يتمرس العلماء بفن المناقشة الخالية من الأخطاء المنطقية، وإلا توصلوا إلى نتائج خاطئة . ثالثاً : كان يشعر شعوراً عميقاً بالواجب واحترام القانون ، وإن نمو العلم الصحيح يتطلب صفاء أخلاقيًّا وصدقاً وتربية فردية واجتماعية ؛ ولاسبيل للمواطن الفاسد أن يكون عالماً صالحاً . رابعاً : إن شكه العقلى يكون نقطة ارتكاز البحث العلمى ، وعلى العالم أن يتأهب لاستئصال دعائم التعصب والخرافات قبل أن يشرع فى البناء . بالطبع لم يكن شك سقراط تامًّا فلم يمتد مثلا إلى موضوعات كالكهانة ،

وما ذاك إلا لتأثير البيئة عليه . وشكوكنا متصلة دائماً بالعقائد التى تقبلها الكثرة الغالبة من جيراننا ، مهما بلغ من غرابتها .

لم يعِ الفلاسفة السابقون أهمية هذه النقاط الأربع . أما سقراط فقد وعاها وعياً تاماً وشدد عليها كل التشديد ، ولهذا السبب وحده يستحق أن يتبوأ مكاناً عالياً جداً فى تاريخ العلم . وإن ثورته على السفسطة والدعاوى الواهية على اختلاف أنواعها لثورة يتفق معه فيها كل العالم ، إذ أن رأس الحكمة العلمية ، على وجه التخصيص ، الإقلاع عن النطق بأقوال لا أساس لها .

لم تكن تفرقة سقراط بين المعرفة النافعة وغير النافعة موفقة كل التوفيق ، بل رجعية . فعندما زعم أنه من المضحك أن نفحص عن النجوم و « عما يدعى بعالم الأساتذة »[٧٩] ، فإنه إنما كان يقفل باباً ينبغى أن يترك مفتوحاً . قد ترفض بعض الأساليب العلمية الفاسدة أو المناقشات الباطلة ، ولكن من المستحيل القول اعتباطاً بأن بحوثاً مفيدة وأخرى غير مفيدة ، وتاريخ العلم كله يبرهن على ذلك . ولعل سقراط كان يستسخف كل الاستخفاف الفحص عما يتم للأشياء المجاورة لقطعة من الحديد الممغنط أو الكهرباء عند حكه ، إلا أن هذه هى السبيل إلى معرفة المغنطيس والكهرباء وجميع الصناعات الكهربائية التى غيرت وجه العالم . كان سقراط أول من أثار مشكلة النزاع الدائم بين « العلم النظرى والعلم التطبيقى » ، التى يمكن حلها بالإشارة إلى أن الأخير لا ينمو بل لا يوجد دون الأول . وكان أول من أثار أيضاً النزاع بين « الإدراك البدهى » و « الأحاجى » العلمية . ونعرف اليوم أنه كثيراً ما تكون الرواية خاطئة بينما تنطوى « الأحاجى » على الحقيقة . ولا محل للومه كثيراً ، لأنه وقع فى هذه الأخطاء فى زمن كانت فيه تجارب البشر العلمية لا تزال مبدئية .

كتاب أيوب :

طال هذا الفصل الذى كرسناه لفلسفة القرن الخامس كثيراً ، مع أننا قصرناه على ثمار أمة صغيرة نسبياً هى الأمة الناطقة باليونانية . وفى خلال قرن واحد صاغ الفلاسفة اليونان عدداً من أعمق المشاكل الفلسفية ، وإذا كانوا

لم يحلوها فإنها ما زالت تقلق الفكر البشرى حتى اليوم . ولعل من المجدى أن نفحص عن الأفكار الفلسفية التى كانت تعالج عند أمم أخرى من أبناء القرن ذاته، وإن أدى بنا ذلك إلى شىء من التطويل . ومن الممتع مثلا أن نعرج على « كونغ تشى » (القرن الخامس ق. م.) حفيد كنفوشيوس ومؤلف اثنين من « الكتب الأربعة »[٨٠] : « نظرية الوسيلة » و « العلم الأعظم » (على الغالب) ، ومونى فى (الخامس ق. م.) الذى جمع بين آراء نفعية وغيرية أخلاقية متطرفة، والذى يدعى أحياناً واضع المنطق الصينى . أما المقارنة بالفلسفة الهندية المعاصرة فمستحيلة ، رغم متعتها ، لاستحالة الاطمئنان إلى التوقيت الزمنى . وثمة مقارنة واحدة يمكننا أن نخوض فيها باختصار وهى المقارنة بـ « كتاب أيوب » .

وتبدو هذه المقارنة أقرب متناولا ، إذا ذكرنا أنها لا تستدعى التوغل فى بلاد بعيدة بعد الهند أو الصين ، ويكفى أن ننتقل ذهنياً إلى بلاد قريبة جداً من العالم اليونانى ، رغم بقائها منفصلة عنه انفصالا غريباً . وتاريخ تأليف كتاب أيوب غير ثابت ، وأغلب الظن أنه كتب فى القرن الخامس (أو الرابع)[٨١] ومؤلفه يهودى أو أدومى[٨٢] : أى فلسطينى على كل حال ، وكانت فلسطين أقرب إلى بلاد اليونان من عامة المستعمرات اليونانية . ولعله اطلع على المصادر البابلية[٨٣] ومن المحقق أنه اطلع على المصادر المصرية : فنهل من المنابع نفسها التى نهل منها معاصروه اليونان ، إلا أن ثمرة تأملاته تختلف كل الاختلاف عن ثمرة تأملات هؤلاء . ولنفكر فى هذا اللغز لحظة واحدة : لقد قلد العبران واليونان نماذج مصرية، فأبدعوا فى صنع الآيات العبرانية واليونانية الرائعة . فماهو التقليد ؟ كل امرئ يقلد سابقيه ، والتعليم ، إلى حدبعيد ليس إلا ضرباً من المحاكاة لنماذج معترف بها ، لكن كلاً يقلد بحسب عبقريته ؛ وإذا كان له حظ من العبقرية فهو يخلق جديداً .

إن كتاب أيوب[٨٤] آية من آيات الأدب العالمى . وقد عده تنيسون « أعظم شعر فى التاريخ » . وموضوعه من الأمور التى ما زالت تحير لب الإنسان وتقلق باله : كيف يمكننا أن نفسر العقوبة التى تلحق بمن لا يستحقها ؟ ولماذا يسعد

الشرير ويشقى الخيِّر ؟ تنطوى هذه الأسئلة على مشكلة الشر والعناية الإلهية (Theodicy) كما يدعوها ليبنتز ، أى إقرار عدالة الله رغم الشر الطبيعى أو الأخلاقى الذى تجيزه أحياناً . ولكن كيف يمكننا التوفيق بين وجود الشر وفضل الله وقدرته الكاملة ؟ لقد أدرك أيوب (أعنى مؤلف كتاب أيوب) أن المشكلة لا يمكن حلها ، نظراً إلى تعالى الله الذى لا يمكننا النفوذ إلى سره وإلى إدراك الإنسان السقيم . تأخذ نكبات المرء بمجامع عقله وقلبه ، ولكنها ليست بذات خطر فى سيرة الكون العامة . وكيف يمكننا أن نفصل فى الأمر ؟ إن تساؤل أيوب يهزنا حقاً لأننا لسنا نعرف عن المشكلة فوق ما كان يعرف .

إن صحة كتاب أيوب بأكمله مشكوك فيها وتكوينه غير متجانس الأجزاء[٨٥] . ولا يصح أن نعير الغموض والتناقض اللذين نجدهما فيه كبير اهتمام ، لأنهما طبيعيان فى لغة أصحاب العاطفة المشبوبة وفى النظم الشعرى الرائع : وكتاب أيوب قصيدة لا مقالة علمية . والرجل الذى كتبه شاعر عبقرى ، وصف بإحكام ودقة عجائب الكون وحكمة الله ، وقد جمع بين المعرفة والواقعية فى خيال بديع ولغة جميلة جداً ، وهو يستخدم استعارات قلما استعملها مؤلف آخر[٨٦] .

استخلص الأنبياء العبرانيون من حكمة الشرق العريق فى القدم فكرة التوحيد ، وأسبغوا على إلههم القومى السلطة الشاملة ، وجعلوه رمزاً حياً للكمال الأخلاقى والعدالة المطلقة . وبهذه الرغبة نفسها حاول الفلاسفة اليونان أن يفسروا وحدة العالم على أساس المعرفة الوضعية ، فكانت فكرة الله عندهم أقرب إلى الطبيعيات والكونيات منها إلى الأخلاق . ومن الغريب حقاً أن يكون إله أيوب أقرب إلى النماذج اليونانية من النموذج اليهودى ، فهو لا يشير إليه قط باسم خاص : وإلهه ليس إلهاً قومياً بل كونياً . ومع ذلك وقع هذا التطابق مصادفة ، ولا مبرر لافتراض أن مؤلف (كتاب) أيوب تأثر بالنماذج اليونانية ، أو العكس . ومن الجدير بالنظر أن يقارن كتاب « أيوب » « بپرومیثيوس الموثق » Prometheus bound لإيسخيلوس . وهذا يثبت مرة أخرى وحدة العبقرية البشرية التى هى مظهر لوحدة الطبيعة ، وصورة لوحدة الله .

تعليقات

(١) نعنى خاصة الأنبياء العبرانيين الذين جمعت أقوالهم فى العهد القديم والذين عاشوا على الأرجح فى الحقبة الواقعة بين القرنين السادس والتاسع . وقد قام فى آسيا عدد كبير من أنبياء آخرين مثل – زرادشت (القرن السابع ق . م . ؟) الذى تسربت آراؤه إلى آسيا الصغرى وبلغت العالم اليونانى عن طريق « المجوس » (راجع : J. Bidez & F. Cumont, *Les mages hellénisés*, Paris, Les Belles Lettres, 1938. ؛ ثم بوذا وماهافيرا فى الهند وكونفوشيوس ولاوتسو فى الصين – ومن الغريب أن جميع هؤلاء عاشوا فى القرن ذاته : أى السادس .

(٢) كان مؤرخو العقائد (doxographers) مصنفين دونوا لنا تاريخ الفلاسفة ومقتطفات من كتبهم . أهمهم أرسطوثيوفراستوس ، إلا أن كتب الأخير التاريخية لم تصلنا مباشرة بل فى مقتطفات لاحقة . وقد نسب إلى بلوتارك (١ – ٢) وستوبايوس (٢ – V) وسواهما مجموعات للآراء الفلسفية تعرف بال Placita philosophorum (مباهج الفلاسفة) . ولكن يرجح أن الراوية البارز بين هؤلاء كان « أيتيوس » ، الذى لا نكاد نعرف عنه شيئاً . ولعله عاش فى أواخر القرن الأول بعد المسيح . ومعظم هذه الآراء إنما وصلنا عن طريق غير مباشر فى مقتطفات من كتب مناهضى الفلسفة كالشكاك والمبشرين المسيحيين الذين حاولوا أن يحطوا من شأن الوثنية . وقد أوضح هذا الموضوع الصعب قدر المستطاع ، هرمان ديلز (١٨٤٨ – ١٩٢٢) فى Doxographi graeci (Berlin, 1879 Editio iterata, 864, pp. 1929) ومن أراد شرحا أوجز لهذه المشاكل التاريخية فليراجع : P. Tannery, *Pour l'histoire de la Science hellène*, 1887, new ed., 1930. pp. 19-29. راجع : *Isis* 15, 179-180 (1931)

(٣) حول هيكل أرتميس (ديانا) راجع : G. Sarton & St. John Ervine, "John Turtle Wood, discoverer of the Artemision 1869", *Isis* 28, 376-384 (1938), 4 figures. كانت أفسوس من الأماكن المقدسة فى العصور القديمة ، وأصبحت بعد ذلك من أول المقدسات المسيحية . لاحظ زيارة القديس بولس لها ورسالته إلى أهل أفسوس .

(٤) توجد طبعة لكتاب هيراكليتوس On the Universe (حول الكون) ، وترجمة إنجليزية من عمل W.H. S. Jones فى آخر المجلد ٤ (١٩٣١) من طبعة Jones لأبقراط فى مكتبة لويب الكلاسيكية Loeb Classical Library ويحتوى ذلك المجلد على ترجمة حياة هيراكليتوس من تأليف ديوجنيس اللائرسى المذكور (١ – III) .

(٥) الشذرة ١٦ .

(٦) « لا يمكنك أن تخوض فى الجدول نفسه مرتين ، لأن مياهاً أخرى لا تلبث أن تجرى نحوك » ، شذرة ٤١ ، راجع أيضاً شذرة ٨١ .

(٧) إن الانسجام غير المرئى يفوق الانسجام المرئى (شذرة ٤٧) . نقش الأصل اليونانى لهذا المبدأ على مدالية تذكارية قدمتها الأكاديمية الفرنسية للعلوم لهنرى بوانكاريه (١٨٥٤–١٩١٢) الرياضى الكبير . وقد صورت المدالية ووضعت فى مجلة Isis ٩ ، ٤٢٠ – ٤٢١ (١٩٢٧) . قابل أيضاً الشذرة ٤٥ : « هم لا يفهمون كيف يتفق ما يناقض نفسه مع نفسه : انسجام التوتر ، كما فى الوتر والقيثارة » ، وأيضاً شذرة ٥٦ و ٥٩ .

(٨) هذه بداية الشذرة ٣٦ ، وينبغى أن أثبت هنا بقيتها لكى أدلل على طبيعة أقواله الغامضة : « إلا أنه (أى الله) خاضع للتقلبات ، كالنار فهى إذا امتزجت مع بهار ما دعيت باسم الطعم الخاص به » . وسائر ما وصلنا من كتاب « فى الكل » مجموعة من الأحاجى .

(٩) الشذرة ١٠٠ .

(١٠) Plutarch, *Life of Pericles*, IV, V, VIII, Translations by Bernadotte Perrin, Loeb Edition of the *Lives*, Vol. 3, pp. 11-21.

(١١) نجد خير تحديد «للعقل» هذا عند هرمياس ، أحد النقاد المسيحيين للفلاسفة الوثنيين ، وقد ازدهر فى القرن الخامس أو بعده بقليل (راجع هرمياس فى (Diels, *Doxographi graeci*, 1879, p. 625) وهو يقول : « العقل (نوس) مبدأ الكون وعلته وحاكمه ، يمنح النظام للأشياء غير المنظمة ، والحركة للأشياء غير المتحركة ، ويفصل الأشياء المختلطة ويجعل من الفوضى (كاوس) عالماً منظماً (كوسموس) . ولو سلمنا بهذا التحديد الرائع ، الصادر عن خصم ، لاضطررنا للقول أن أناكساجوراس هو أبو الثنائية الفلسفية ، ولكنا لسنا واثقين من الأمر كما وثق هرمياس . ولو أردنا أن نذهب إلى الطرف الآخر لفسرنا « نوس » « بالطاقة » ، ولكن من الأفضل أن نحتفظ بالعبارة اليونانية ، ونعترف بأننا نجهل معناها الدقيق .

(١٢) راجع الشذرتين ١٥ ، ١٦ فى Tannery ، رقمى ٣ و ٦ فى طبعة Diels . لنكرر أن « البذور » ليست أبسط من سائر الأشياء ، ولا مختلفة عنها فى التركيب . ولو أردنا أن نشرح ذلك بالرجوع إلى صورة حديثة ، وهى محاولة خطرة فى رأيى ، نقول إن البذور هى نقاط التنظيم الأول (الحاصل بالمصادفة) التى تؤلف الخميرة للتنظيم العام . ويدعو لوكرتيوس (Lucretius) هذه البذور « هوميمريا » (Homoiomeria) (أجزاء متجانسة) – راجع De rerum natura I, 830 ff.

(١٣) الأولى فى Diels و Tannery . ولعلها كانت أول عبارة فى مقالة أناكساجوراس .

(١٤) ليس التمييز بين الهواء والأثير واضحاً جدا . كان أناكساجوراس يدرك أن الهواء جسم وأنه كالبخار نوعاً ما ، وأن الأثير ألطف منه ، يكاد يشبه مادة القبة السماوية الزرقاء اللامعة (empyros) وكلمة أثير مشتقة من الفعل « أيثو » (aitho) أى يضىء أو يحرق أو يلهب . ويظهر أن معظم الكون فى رأيه مؤلف من مادتين : إحداهما لطيفة أو خفيفة والأخرى أشد منها لطافة . وأشكال المادة الأخرى نتيجة لتكاثف غير عادى .

(١٥) يروى بلينى الأكبر (٢–I) فى «تاريخه الطبيعى» (١٤٩ ،II) أن أناكساجوراس استطاع ، لمعرفته بالفلك ، أن يتنبأ أن صخرة سوف تقع من الشمس بعد عدد من الأيام وكان هبوطها

نهاراً . . . . وهذا بالطبع كلام سخيف ؛ ولكن بلينى يضيف « أن الحجر لا يزال مشاهداً وأنه بحجم شحنة عربة وأنه أسمر اللون »

(qui lapis etiamnunc ostenditur magnitudine vehis, colore adusto)

وهكذا كان هذا الحجر مشاهداً فى أيام بلينى (٢٣ — ٧٩) .

(١٦) ليست الرواية مستبعدة ، ولكنها وصلتنا عن طريق شاهد متأخر ، فيتروفيوس (١ — ٢ ق . م) فى مقدمة الكتاب السابع الذى يبحث فى « التزويق الداخلى » من مؤلفه فى «فن العمارة » . وينسب « فيتروفيوس » مؤلفات رياضية عن قانون الظلال إلى ديمقريطس وأناكساجوراس معاً ، وما يقوله ينطبق على كليهما وينسب اختراع فن التصوير المسرحى إلى « أجاثارخوس » من أبناء جزيرة ساموس (القرن الخامس ق . م) أحد معاصريهما .

(١٧) H.F. Tozer, *History of Ancient Geography*, Cambridge University Press, 1935, p. 63, app. xi.

(١٨) دعاه الناس « نوس » (العقل) تهكماً ، كما يذكر بلوتارك فى النص الوارد أعلاه . وهذا ذو مغزى : فإشارات أناكساجوراس إلى « العقل » بدلا من آلهة المدينة كانت دليلا كافياً على كفره .

(١٩) هذا ما يقترحه ألمستيد فى تاريخ الفرس ، A.T. Olmstead *History of Persia*, Chicago University of Chicago Press, 1943, p.328

(٢٠) فى مقالة ابقراط فى الطب القديم (Ancient medicine, I) ، إشارة غريبة إلى مليسوس : « وعندى أن هؤلاء الرجال (الفلاسفة) لضعف إدراكهم يناقضون أنفسهم فى أقوالهم عينها ، ويقرون بذلك نظرية مليسوس » (Ton de Melissu logon rthon)

(٢١) تخطر للمرء هنا مقارنات مع الآراء الهندية التى يشار إليها عند استعمال كلمتى « مايا » و « أفيديا » ونكتفى بالإلماع إليها . تعنى مايا : الوهم أو عدم الحقيقة (الباطل) ، و أفيديا : الجهل الروحى أو الجهل إذا رافقه عدم الوجود أو الوهم (الذى يتمثل فى مايا) ويستعمل البوذيون والهندوس هاتين اللفظتين .

(٢٢) لا داعى للافتراض أن المذهب الذرى خطر لانبادوكليس أو أنه سمع به أصلا ، فأول الذريين عندنا هو لويكيبوس الذى تنسبه عادة إلى أواسط القرن أو ما بعده (راجع ما يلى) .

(٢٣) إن تبلور التفكير الغربى واليونانى حول الأربعة يزداد غرابة إذا قارناه بالنظريات الصينية الطبيعية التى تدور على الخمسة (راجع : *Isis* 22, 270 (1934-35)) ، والنظريات الهندوسية التى تدور على الثلاثة (tridosa) — *Isis* 34, 174-177 (1942-43) وهذا التصنيف قد يستخدم كأساس لتأويل ثلاثة نماذج ثقافية كبرى : التثليثية (الهند) والتربيعية (أوربا وآسيا الإسلامية) ، والتخميسية (الشرق الأقصى) .

(٢٤) راجع : *Isis* 25, 403-425 (1936), ill. فى — A. Pogo, "Egyptian water clocks." وحول الساعات المائية البابلية راجع ص٧٥ . ويروى ديوجنيس الاثرسى (IX, 46) أن بين كتب

ديموكريتوس « الرياضية » كتاباً عنوانه : النزاع بين الساعة المائية (والسماء) وقد فقد هذا الكتاب والعنوان غير واضح .

(٢٥) قامت مناقشات شبيهة بهذه عند الهندوس من مدرسة « نيايا » الفلسفية ، ولا داعى لافتراض أن هذه النظريات ، المحفوظة فى نصوص سنسكريتية ، أثرت فى المفكرين اليونان أو العكس ولاستحالة تأريخ هذه النصوص ، حتى فى إطار بضعة قرون ، يستحيل البرهنة على صحة أى من وجهى المسألة . راجع : D.N. Malik, *Optical theories* (Cambridge, 1917), pp. 1-2.

(٢٦) راجع : I. Bernard Cohen, "Roemer and the first determination of the speed of light, 1676," *Isis* 31, 326-379 (194c), iii.

(٢٧) De sensu, 446A26-B2; De anima, 418B21-23

(٢٨) أصبحت العناصر الأربعة بعد ذلك الكيفيات الأربع . فالأخلاط الأربعة ، فالطبائع الأربع من خلال هذه جميعها تستشف كبرياء بنادوفليس المتزيى بجميع هذه الأزياء — *Isis* 34, 205-208 (1943)

(٢٩) نسبت فكرة التناسخ أيضاً إلى الفيثاغوريين والأورفيين ، ويرجح أنها من أصل شرقى . ومن المحتمل أن تكون « السمسارات » الهندية قد وصلت اليونان عن طريق بلاد الفرس ، وتؤيدها أفكار مماثلة أخذت عن مصر أو مرت بطريقها . Cumont, *Lux Perpetua*, pp. 197-200, 408.

(٣٠) Joseph Bidez, *Biographie d'Empedocle* (176 pp., Gand, 1894)

(٣١) أحسن المراجع العامة فى مذهب الذريين هو كتاب :

Cyril Bailey, *The Greek atomists and Epicuros* (630 pp.; Oxford: Clarendon Press, 1926) [*Isis* 13, 123-125 (1929-30)].

"Uden Chrema maten ginetai, alla panta ec logu te cai hyp'anagces".

(٣٢) النص اليونانى أقرب متناولا : (والترجمة العربية الحرفية : لا يحدث شىء عبثاً بل الكل عن سبب وبضرورة — (المترجم) .

(٣٣) يوجد إنتاج أدبى غزير حول ديموكريتوس ، لأن المناقشات المستمرة حول « الذرية » و « المادية » التى تعود إلى الظهور بين قرن وآخر بشكل جديد تنتهى غالباً إليه . كتب كارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣) مثلا أطروحة فى شبابه عن الخلاف بين ديموكريتوس وابيقور (١٨٤١) ، ومن هنا الاهتمام الروسى العظيم بديموكريتوس — راجع : *Isis* 26, 456-457 (1936)

(٣٤) كانوا يتحكمون على الأبدريين والبوئيين لغباوتهم ، كما يتحكم الفرنسيون اليوم على أهل بونتواز وشارنتون ، والأمريكيين على أهل « بروكلين » و « كلامازو . »

(٣٥) ينسب أناكساجوراس إلى مدرسة ديموكريتوس ، يدل ذلك على أن هذه المدرسة استمرت برهة من الزمن بعد وفاة مؤسسها — وقد رافق الاسكندر فى حملاته الآسيوية ، وبعد وفاته (٣٢٣) أعدم بأمر من ملك سلاميس فى قبرص . وكان يدعى « بالمتفائل » (ho eudaimonicos) وهذا مما يثبت صحة انتسابه لديموكريتوس .

(٣٦) وصلنا ثبت مؤلفاته عن طريق « ديوجنيس اللائرسى (٩ – ٤٦) وهو يشير إلى أن تقسيمها فى أربعات (tetralogies) من صنع رجل يدعى « تراسيلوس » الذى فعل بآثار أفلاطون مثل ذلك (وقد بقى هذا التقسيم فى أكثر طبعات مؤلفات أفلاطون) . ولعل تلك العادة كانت متصلة بتقاليد المسرح الاثينى القديم ، فقد كان على الروائى أن يتقدم بأربع مسرحيات فى الموسم الواحد : أما أربع مآس أو ثلاث و رواية هزلية satyric .

(٣٧) عقد الصلح مع الفرس سنة ٤٤٩ « كالياس بن هيبونيكوس » ، راجع :

Olmstead, *Histotry of Persia*, p. 332.

(٣٨) راجع : Armand Delatte, *Les conceptions de l'enthousiasme chez les philosophes présocratiques* (79 pp.; Paris : Les Belles Lettres, 1934);

Joseph Bidez, *Eos* (Brussels : Hayez, 1945), pp. 136 ff (*Isis* 37, 185 (1947)

(٣٩) أثبت هذا المثل وما يتلوه كما ورد فى ترجمة : Cyril Bailey, *The Greek atomists and Epicurus*, pp. 187-213 (*Isis* 13, 123, 1929-30)

أورد « بيل » النص اليونانى أيضاً وطبيعى أن يكون وقعه أفضل من النص الإنجليزى لأن اليونانى هو الأصل بينما الإنجليزى نسخة باهتة .

(٤٠) وهكذا كان معاصراً أسن لأفلاطون الذى تأثر به مع أنه لا يذكره فى كتبه أبداً .

J. Bidez Eos. P. 134.

(٤١) أرسطو – « المتافيزيق » Metaphysica, 985 B 14 : « هذه الفروق عندهم ثلاثة : الشكل (schema) الترتيب (taxis) ، الوضع (thesis) . فهم (أى الذريون) يقولون إن الوجود يختلف فقط فى السياق (rhythmos) أو التماس (diatige) أو الدوران (trope) . وفى هذه الثلاثة : السياق هو الشكل ، والتماس الترتيب ، والدوران الوضع . لأن (أ) تختلف عن (ن) فى الشكل ، (أن) عن (نأ) فى الترتيب و د عن ه فى الوضع . أما مشكلة الحركة من أين تلحق الأشياء ، وكيف تلحقها ، فقد أهملها هؤلاء المفكرون تكاسلا ، كسواهم » .

(٤٢) Bailey, *The Greek atomists and Epicurus*, p. 185.

(٤٣) راجع بحث « أرثر كيث » (Arthur Berriedale Keith) المسهب لهذه المسألة فى :

Indian logic and atomism. An exposition of the Nyaya and Vaiçesika systems (291 pp.; Oxford, 1921) (*Isis* 4, 535-536 (1921-22)).

(٤٤) نجد لعدد من النظريات اليونانية العلمية والفلسفية مثيلا فى الهند . ومن الممتع جداً أن نقابل بين هذه الأشكال المتشابهة ، وإن كان يعسر أن نثبت تقدم إحداها على الإخرى أو اعتماد إحداها على الأخرى . وهذا التشابه يساعد على التدليل على وحدة التفكير البشرى الأساسية . ولو افترضنا عدداً من المشاكل لا تحتمل إلا عدداً معينا من الحلول ، فليس من الغريب أن يعثر عليها الحكماء فى اليونان والهند أو الصين ، كل بذاته .

(٤٥) وهو يدعى أيضاً « هيرينيوس الجبيلى » : نحوى رومانى عاش فى جبيل من أعمال فينيقيا

فى عهد الأمبراطور ويسباسيانوس (٧٠ – ٧٩) وكتبه مفقودة .

(٤٦) سميراميس ملكة الآشوريين المشهورة فى الأساطير ، ولعلها هى سمورامات ، امرأة شمشى أداد الخامس (٨٢٤ – ٨١٢) .

(٤٧) راجع Bailey, *The Greek Atomists & Epicurus* pp. 64-65 George Contenau; *Manuel d'archeologie orientale* (Paris, 1927), vol. 1, pp. 316-319. (*Isis* 20, 474-478 (1933-34). Per Collinder, *Historical origin of atomism* (Lund: Observatory, 1938) (*Isis* 32, 448 (1947-49)).

(٤٨) محاورة جورجياس ، (Gorgias) وهى نقد للبيان ، ومحاورة بروتاجوراس (Protagoras) هى نقد للسوفسطائية . وكلاهما يرقيان إلى عهد نضج أفلاطون .

(٤٩) Pierre Maxime Schuhl, *Essai sur la formation de la pensée grecque* (Paris : Presses Universitaires, 1949), p. 368, (*Isis* 41, 227 (1950)).

(٥٠) هذه هى المرة الأولى التى دونها التاريخ لحرق الكتب ، وذلك سنة ٤١١ ، وهى تشير إلى أنه كان فى أثينا تجارة رائجة للكتب آنذاك . وتكررت هذه « الجريمة » بعد هذا فى بلاد مختلفة ، ويكفى أن نذكر المثلين الثانيين : حرق الكتب بأمر الأمبراطور الأول « شيه هوانك تى » (٢ – III ق . م) وفى الطرف الآخر الحريق الذى أمر به هتلر فى العاشر من مايو سنة ١٩٣٣ .

(٥١) استطعنا أن نكتب « ولادة النحو » ، لأن النحو اليونانى كان على الأرجح أول نحو ولد واكتمل ، ولعل منافسه الوحيد هو النحو السنسكريتى . ولسنا نعرف تاريخ بداية الوعى النحوى فى الهند إلا أن أول نحوى سنسكريتى هو « بانينى » (١ – IV ق . م) الذى عاش قبل قيام أى نحو يونانى . حول نزعة بروتاجوراس النحوية راجع : Gilbert Murray, *Greek Studies*, Oxford Clarendon Press, 1946) pp. 176-178 (*Isis* 38, 3 (1947-48)).

(٥٢) كان أقدم الخطباء العشرة الوارد ذكرهم فى الجدول الاسكندرى . وهؤلاء الخطباء حسب الترتيب التاريخى هم أنتيفون (٤٨٠ – ٤١١) ، ليسياس الأثينى (٤٥٩ – ٣٧٨) ، أندوكيدس (٤٤٠ – بعد ٣٩٠) ، ايسوقراط الأثينى (٤٣٦ – ٣٣٨) ، ايسايوس (٤٢٠ – ٣٤٨) ، هيبريدس (٤٠٠ – ٣٢٢) ، ليكورجوس الأثينى (٣٩٦–٣٢٣) ، ايسخينس (٣٨٩ – ٣١٤) ديموستين (٣٨٥ – ٣٢٢) دينارخوس الكورنثى (٣٦١ – مات متقدماً فى السن) ، وبعض هذه التواريخ تقريبية تستغرق أعمارهم مدة قرنين : الخامس والرابع .

(٥٣) لم يكن انتيفون أول الخطباء ، وأولهم كوراكس الصقلى الذى نبه ذكره فى سراقسة بعد نفى الطاغية ثراسيبولوس سنة ٤٦٧ . وقد ألف أول كتاب عن الخطابة دعاه (Techne أو الفن) ويشير إليه أرسطو وشيشرون وكونتيليان .

(٥٤) يوشع لوث ليبمان (١٩٠٨ – ١٩٤٨) حبر يهودى أمريكى ألف كتاباً اكتسح الأسواق عنوانه « طمأنينة الفكر » (Peace of mind)

New York, Simon and Schuster, 1946.

(٥٥) *Hocacodaimon Socrates* (*Clouds*, 104) . وسقراط هو أحد الأشخاص فى تلك المسرحية .

(٥٦) *Meteorosophistes*; (*Clousds*, 360)

(٥٧) George Sarton, *Portraits of ancient men of science* (Uppsala : Lychnos, 1945), p. 254.

(٥٨) راجع مقتطفات « فيدون » Phaidon المثبتة فيما بعد .

(٥٩) يمكننا أن نعتمد على المحاورات الأولى فقط . فى المحاورات اللاحقة يدخل أفلاطون سقراط كلسان حاله فقط . وكما شرحنا فى الفصل السادس عشر كان ذلك خيانة حقيقية .

(٦٠) أكسينوفان : Memorabilia I, I, 10-17 ترجمة

Edgar Cardew Marchant, Loeb Classical Library (1923), p. 7.

(٦١) إذا أردت أمثلة أخرى فراجع : A.J. Festugiére, "Trois rencontres entre la Grèce et l'Inde", *Revue de l'histoire des religions* 125, 32-57 (1942)

(٦٢) أفلاطون : *Alcibiades* I, 138 c.

(٦٣) Bidez, *Bos*, p. 122.

(٦٤) *Memorabilia*, III, XI.

(٦٥) يشرح س . ا . هاياكاوا (S.I. Hayakawa) وجهة النظر الخاصة بعلم المعانى (semantics) شرحاً بديعاً فى كتابه : *Language in action. A guide to accurate thinking, reading, and writing* (250 pp.; New York: Harcourt Brace, 1941) (*Isis* 34, 84 (1942-43). ولو عرف سقراط هذا الكتاب لشغف به .

(٦٦) على هامش ذلك ، من الطريف أن نتأمل فى عقيدة سقراط فى شيطانه (to daimonion) الذى كان يشير عليه — أو كما قد نقول اليوم الإلهام الإلهى الذى كان يقع إليه ، فكان صاحب عقيدة ومن المتحمسين لها . وينبغى أن نأخذ كذلك بعين الاعتبار إيمانه بالكهانة (mantice) الذى كان يشارك فيه عامة القدماء ، إلا أن ذلك قد يخرج بنا عن البحث كثيراً .

(٦٧) كان أنيتوس أهم متهمى سقراط الثلاثة وأحد أعداء السوفسطائيين وكان الدور الذى لعبه فى طرد « الطغاة الثلاثين » قد زاد فى نفوذه ، ويدعو هوراس سقراط غريم أنيتوس « "Anyti reus" (*Satirae*, II, IV, 3)

(٦٨) راجع : أفلاطون — دفاع سقراط (٣٠أ) . *Apology of Socrates* (30 A) ترجمة Harold North Fowler (Loeb Classical Library).

(٦٩) « تياجيس (أو فى الحكمة : فن التوليد) ليست من تأليف أفلاطون ، وإنما كتبت متأخرة نوعاً (حوالى القرن الثانى قبل المسيح) ، إلا أنها وصلت إلى مكتبة الإسكندرية وأدرجت فى أقدم جدول لكتب أفلاطون من تصنيف المنجم تراسيللوس الإسكندرى (توفى سنة ٣٦ ميلادية) ، ومن ثم فى عدد من طبعات كتب أفلاطون (استفانوس ، ص ١٢١ — ١٣١ ، لويب Loeb مجلد ٨)

(٧٠) كان الحكم على سقراط فى أغلب الظن سياسياً . فلدى انتهاء حرب البيلوبونيز اتهم بتعليم الناس الذين جنحوا عن الديمقراطية وتآمروا مع العدو لكى يقوضوا أركان أثينا . ويكفى أن نذكر أسماء الحكام الخونة : الكيبياديس وكريتياس وخارميديس وجميعهم من تلامذته . ويزعم Popper أن سقراط لم يخلف سوى خليفة واحد جدير بالاكبار هو « انتستناس » ، راجع :

K.P. Popper, *The open society*, (London : Routledge, 1945), vol. I, p. 168, 171.

وإذا أردت بحثاً قانونياً فى محاكمة سقراط . راجع : Sir John Macdonell, *Historical trials* (Oxford, 1927), pp. 1-18.

(٧١) هل يمكن أن نتصور أن أحداً من الدكتاتوريين المحدثين يبدى مثل هذه الشهامة نحو ضحاياه ؟ إنه لا شك فاعل عكس ذلك : « زاجاً بهم فى السجن المنفرد (الزنزانة) وموقعاً بهم ضروب العذاب والاستجواب » . وهذا يدل على مدى تقدمنا منذ سنة ٣٩٩ ق . م !

(٧٢) يدور حول محاكمة سقراط وموته أربع محاورات أفلاطونية أوطيفرون (Euthyphron) (فى القداسة) ، الدفاع (Apology) (الذود عن سقراط عند محاكمته) . أقريطون (Criton) و « فيدون » . (Phaidon)

(٧٣) ترجمة (Harold North Fowler) مأخوذة من طبعة لويب (Loeb) لكتب أفلاطون ، مجلد ١ ، ص ٣٩٥ – ٤٠٣ .

(استعنت فى نقل هذه الفقرة بترجمة زكى نجيب محمود لفيدون – فى « محاورات أفلاطون » ، مصر ١٩٤٥ ، ص ٢٩٨ – ٣٠٢ – المترجم) .

(٧٤) تلك الفقرة الأخيرة من « المذكرات ، Memorabilia كما ترد فى ص ٣٥٧ من ترجمة . E.C. Marchant (Loeb Classical Library, 1923, p. 347)

(٧٥) يعود الفضل فى نشر هذه الملاحظات إلى صديقى Dr. Chauncey D. Leake عالم صيدلى وعميد كلية الطب ، جامعة تكساس ، Galveston (عن رسالته المؤرخة ٢٢ أكتوبر ١٩٤٥) .

(٧٦) Percy Gardner, *Sculptured tombs of Hellas* (٢٧٨ صفحة و ٣٠ لوحة . لندن ١٨٩٦) . Maxime Collignon, *Les statues funéraires dans l'art grec.* (٤١٢ صفحة ، بالرسوم ، باريس ١٩١١) . Alexander Conze, 1831-1914), *Die attischen Grabreliefs* أربعة مجلدات وأطلس ، برلين ١٨٩٣ – ١٩٢٢ . المجلدان الأولان سهلا القراءة جداً ومليئان بوصف مفصل للمقابر اليونانية عامة . أما مؤلف Conze فهو موسوعة للتوابيت اليونانية المنحوتة . ولسد حاجة القارئ يكفى أن يطالع الفصول المتعلقة بالموضوع فى كتاب Gardner أو Collignon

(٧٧) ليس كيبس هذا هو مؤلف لوحة بيناكس Tablet Pinax الرامزة إلى الحياة البشرية ، كما كان يعتقد سابقاً ، فقد كتب هذه اللوحة سمى له عاش بعده بزمن طويل وكان مطلعاً على تعاليم المشائين والرواقيين والفيثاغوريين. وكان لوسيان الساموستى أول من أشار إلى البيناكس واعتقد أنها قديمة مع أنها على الراجح لم تكن أقدم من زمنه بكثير .

(٧٨) Olmstead, *History of Persia* ص ٤٤٦ .

(٧٩) *Ho columenos hypo ton sophiston cosmos, Memorabilia,* quoted above

(٨٠) يرتكز التراث الكنفوشى على الروائع الخمس ، (ووتشنغ) والكتب الأربعة ، (سسوشو) . (تشير الأرقام الموضوعة بين هلالين فى اللائحة التى تلى صفحات « مقدمتى » ، المجلد ٣ ، حيث يجد القارئ ذكر الأشخاص الصينيين وكذلك إشارات إلى صفحات المقدمة حيث يجد المرء معلومات أوفى عن كل منهم) . الروائع الخمس هى : ١ . أى تشنغ أو كتاب التغيرات (٢١١٧) — ٢ . شو تشنغ أو كتاب التاريخ (٢١٢٩) ؛ ٣ — شيه تشنغ أو كتاب الشعر (٢١٢٨) ؛ ٤ — لى تشى أو سجل الطقوس (٢١٢١) — ٥ . تشؤن تشيو أو الربيع والخريف (٢١١٠). أما الكتب الأربعة فهى التالية : ١ . تاهسويه ، العلم الأكبر (٢١٣١) — ٢ . تشونغ يونغ ، نظرية الوسيلة (٢١١٠) — ٣ . لون يو ، مقتطفات الكنفوشية (٢١٢٣) — ٤ . منغ تسو ، منسيوس (٢١٢٣). التاهسويه والشونغ يونغ هى أجزاء من اللى تشى . وقد طبعتا معها فى طبعة المجلدات ٢٧ — ٢٨ . *Sacred books of the East,* Legge توجد نشرة صينية — لاتينية فرنسية لهذين الكتابين من صنع Oxford 1885 Seraphin Couvreur, *Les quatre livres* (Ho Kien Fou: Mission Catholique, 1910).

(٨١) إن القصة الشعبية التى يرتكز عليها كتاب أيوب أقدم جداً ، أى إن أيوب قد يكون أقدم بألف سنة من « كتاب أيوب » .

(٨٢) الأدوميون أو الأيدوميون هم سلالة عيسو أو أدوم أخى يعقوب ، وهم قبيلة عبرانية مستقلة رحالة ، وثقافتها أدنى مستوى من الاسرائيليين ، وأرض أدوم جنوب البحر الميت .

(٨٣) ثمة أيوب « بابلى » — راجع عنه Robert William Rogers (1864-1930) *Cuneiform parallels to the Old Testament* (New York, 1912), pp. 164-169.

(٨٤) فى دراستى له استعنت كثيراً بكتاب : Robert H. Pfeiffer, *Introduction to the Old Testament* (New York : Harper, 1941), pp. 660-707 (*Isis* 34, 38 (1942-42)). وهو تحليل واف يشتمل على ثبت كامل بالمراجع .

(٨٥) يعالج Pfeiffer هذه القضية فى استقصاء (ص ٦٦٧ — ٦٧٥) . يحتوى كتاب أيوب على بعض المتناقضات التى قد تكون ناجمة عن التشويش فى الترتيب أو الحذف أو دس فصول مزيفة . مثلا يميل النقاد المحدثون إلى اعتبار القصيدة الرائعة فى الحكمة الإلهية (فصل ٢٨ : ٤٢) من هذا النوع . وليس فى وسعنا أن نتعمق فى هذا وينبغى أن نأخذ الكتاب على علاته مفترضين صحته كاملا .

(٨٦) لا أعرف العبرانية جيداً بحيث أتمكن من تذوق الأسلوب الأصلى ، لذلك أبنى أحكامى على الترجمات الإنجليزية . تأمل عبارات كهذه « أما أنا فقد علمت أن ولى حى (١٩ : ٢٥) ولا يرى هدب الصبح (٩ : ٣) ؛ « عندما رنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بنى الله (٧ : ٣٨ » . يستعمل المؤلف أغنى مجموعة مفردات نجدها عند أى مؤلف عبرانى آخر ، فيكون بحكم ذلك كما يقول بفايفر (Pfeiffer) شكسبير العهد القديم . ولم يتوافر لأى شاعر من شعراء العهد القديم مثل إساغته لجمال الطبيعة .